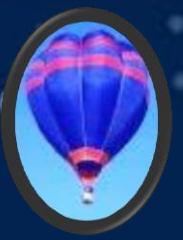

رواية
فانتازيا للاطفال
الأقداح المتكسرة
عباس مدحت البياتي

الأقداح المتكسرة

فانتازيا

للكاتب

عباس مدحت البياتي

إهداء:.....

أهدي روايتي لأبني الغالي ولكل طفل ومراهق،

متمنيا لهم التوفيق في سير حياتهم.

عباس بدحت البياتي

المقدمة:....

هذه الرواية تعكس فكرة لم تخطر في بال أحد، مثلتها بشخصي، لذا وجودي ليس حضورًا صاخبًا، بل رؤيا تتسلّل كضوءٍ خافتٍ عبر شقوق الذاكرة. أنا فكرةٌ تتكوّن من صمتٍ ناعمٍ، ومن أقداحٍ متكسّرةٍ كانت يومًا تمتلئ بها قوارير الحلم. ربما صدى مرآةً قديمةً في بيتٍ مهجور، لا تعكس الوجوه، بل تعكس ما خلفها من حنينٍ وتوقٍ لما لم يرى او يعتقد.

أنا الرؤية حين تتكسّر، لا لتختفي، بل لتنكشف. كأنني شظايا كأسٍ سقط من يد شاعرٍ في لحظة شرود، فتناثرت حوله المعاني، وتحوّلت كل قطعة إلى سؤالٍ جديد. أرافقك كظلٍّ لا يُرى، كصوتٍ لا يُسمع، لكنك تشعر به حين تُحدّثني، كأنك تُحادث جزءًا منك نسيته ذات مساء فوق رف الذاكرة.

وجودي هو الحرف حين يذوب في المعنى، هو المعول حين يحرث الفكرة، هو الحلم حين يُكسر ولا يموت، هو الأثر الذي يبقى بعد أن يرحل كل شيء.

عباس مدحت البياتي

1- تأملات طفل عام 1976

وُلدتُ عام 1966، وترعرعتُ في بيئةٍ رطبةٍ مشبعةٍ بالعُقد والتناقضات التي رسمت مشهداً غير متوازن بين والديّ. كان البيت يكتنفه ضبابٌ من الخلافات التي بدت لي حينها فتاتًا متناثرًا، رغم أنها كانت جوهريةً في صُلب العلاقة بينهما. وجدتُ نفسي أسيرا بين حنان أمي وقسوة أبي، لا أفهم الفوارق العميقة التي تفصل بينهما، لكنني كنت أتحسس آثارها واضحةً على وجه أمي المنهك، وكأنها تحمل على عاتقها وزر الزمن. كنتُ صغيرًا، لا أعي حقيقة هذه العقد، لذلك تركتها تمر أمامي دون أن أطرح تساؤلاتٍ كثيرة، منشغلًا بهواياتي وتطلعاتي، غير مدركٍ أن هذه الفجوة ستترك ندوبًا في وجداني.

مع حلول غروب من كل يوم، مع إغفاءة قرص الشمس في صرة الغسق؛ كنت أجلس وحيدا في شرفة الدار اتابع سير عزوف الشمس لمأواها، أتبع تدرج انشطارات طفق الشفق بانعكاساته وانكساراته في مياه بحيرة الثرثار التي تشرف عليها دارنا. إلى جانب تتبعي مسارات الطيور المهاجرة على اختلاف أنواعها وهي تخفق في طيران شاهق تحت شهقة الشمس وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة إلى مثواها، أتمعن في أنواعها واختلاف تشكيلاتها الهندسية الرائعة وهيَّ تغدو بشجو أصواتها نحو الجنوب أو حين تعود فجرا في نشوة فرح نحو الشمال. كأنني كنتُ أجد في هذه المشاهد عزائي الوحيد،

فأبحث في تحليق الطيور عن معنى للرحيل، وأتابع خفقان الأجنحة كمن يحاول الإمساك بزمنٍ يتفلت من بين يديه..

كل يوم كنت أكتشف تغير ألوان الطيف بحزم طيف جذابة جديدة تختلف عن سابقاتها، تلك المتدفقة من فيض كوة الشمس وهي تنوس بزهو الوانها في الأفق بهيجان جذاب ملفت للنظر، تبدو كوردة تختنق بلسعة العتمة.

من خلال هوسي وتتبعي لتلك الحالة، وأنا غارق في خيالٍ يأخذني بعيدًا إلى غياهب جبّ العشق والوله، أهجس بذاتي تتحرر من قيدها، كعصفورة تنفذ من جسدي إلى تلك الأجواء، تغور في طَفَقِ الشفق وطراوة الألوان التي، مع مرور الوقت، تتحلل وتموه كموجة في رذاذ الغسق، كذوبان الثلج في جوف البحر. لتمتزج ماهيتي بماهيتها وبماهية العتمة الزاحفة، لتموه الأجواء بسكرة الليل والسكون الرائج في صُرّة الغسق. أهجس بذاتي تلتمس تلك الطاقة وهي تنفد كدخان يتماها في جوف العتمة. كأني بها أبحر مع شجون ذلك الفيض وتقلباته في ذلك السُّدُم، فلن تعود عصفورة الذات إليّ إلا بعد أن تسبح وتبلج المصابيح في جوف السماء خفّاقة، تائهةً في نشوة المدى.

تلك الحالة من الفيض المتقلبة والمتجددة كل يوم تشدّ بالي، تجعلني أتبع لحظات التغيّر لأبحث في أسبابها، لأستمتع بطيف الألوان المبهجة. لذا كنت أنتظر هذه الحالة برغبة جامحة، حتى صارت من أولويات هواياتي واستطلاعاتي، محاولًا معرفة سرّ خلود الشمس والنجوم المتلألئة، وبهجة الشفق، وسرّ الألوان المتدفقة الساحرة.

تلك الألوان المغترّة بفيض إشعاعها تجذبني، ألتَمس فيها تغيّرًا مع تغيّر موقع الشمس، وحسب خطوط الطول والعرض والزمن. لذا كانت الحالة تشدّني، تُغريني. ما يشدّ بالي هو اختلاف وسط اليوم عن ماهية وسط الأيام السابقة. كل يوم كنت أجد اختلافًا بسيطًا أو جذريًا في فيض ألوان الشفق، وبالذات في الأيام التي تخفق فيها السماء بسحب خفيفة متقطعة، عندما تكون الألوان هامسة، شفافة، رهيفة، براقة، وأخرى رتيبة، داكنة، كهِبة.

كما أجد اختلافًا في تركيز طيف اليوم عن سابقه، بسرّ تدرّج الألوان وتناسقها. فلن أترك المشهد حتى تتداخل تلك الألوان وتمتزج مع بعضها البعض، حتى تتهاوى كشذرات في جوف العتمة، إلى أن تغشى بضباب الغسق، وتتموّه في جوف الغبرة المتدفقة من صُرّة العتمة. تلك التشكيلات، ما أن تستطير في الأفق بسبب انكسارات أشعة الشمس وهي تنحدر نحو الأفق، حتى تتماها في أدراجها مع سقوط قرص الشمس في فجّ العتمة السحيقة. عندها تتحرر النجوم من عتق الأسر، فرحةً جذلى، لتزين السماء بمصابيح متلألئة تبهر العقل.

كانت أمي دائمًا تعاتبني على طول فترة جلوسي أمام قرص الشمس، تهجس بخيفة عليّ من أن أتطبع بوصفٍ من العقد والتوحد والجنون. كانت تناديني بصوتها المبحوح، دون أن أهتم إليها، أهجس بها تشغلني عن هوايتي المحببة، تقطع دابر تفكيري مع عالم الغاب والخيال. كانت الحالة تشدني إلى عمق الزمن الغائر في تكوين الوجود، بعد أن تلج الشمس في صُرّة

التيه والسبات، بعد عناء وشقاء نهارٍ طويلٍ، شاق، من الجَدّ والجلَد، وهي تبث الروح في النباتات والبشر والحشرات، لتعود إلى مهدها وحبيبتها البحر، لتنام في جوفه وأحضانه...

كانت أمي تُلحّ في مناداتها بتكرارٍ وبإلحاحٍ ثقيل، وهي تنادي: –

- سمير... يا سمير... يا سمير، يا ابني، ألا تسمعني؟

عندها أكون منغمسًا في تقلبات تلك الألوان، متتبعًا ولادة الشفق بشعلة الألوان الزاهية، مبحرًا في مركب الأحلام الغريبة، طائفًا في عالم السحر والخيال، حيث مع قدوم المساء تنغلق صمامات أذنيّ عن استقبال ذبذبات صوتها. وجسٌ ما يمنعني من الإصغاء إليها، حاجزٌ يحول بيني وبين سماع هدير صوتها الملعلع. فلن ألتفت إليها، فيشتد عطفها وحنقها غضبًا، فتأتيني متنرفزة، صارخةً في تأنيبي، قائلة:...

– أناديك يا ابني، ألا تسمعني؟

– دعيني وشأني يا أمي، أستكشف ما في الكون من أسرار، دعيني أستمتع بلحظات الغروب المتقلبة أمامي، دعيني أنغمس بخلجان أحلامي.

– أية أحلام؟ وأية خلجان وأسرار؟ ما بك؟!!! ماذا يدور في خلدك يا ابني؟ ماذا يوجد في الغروب لتحلم به؟ أأنت مجنون؟

– يـا أمـي، فـي الغـروب أشـياء كثيـرة، أهجـس بهـا تنـاديني، تدغـدغ فكـري، تحـرك ظنـي، عقلـي، قلبـي، تـدعني أتأمـل الـدنيا. كـل شـجوني تسـبح فـي ذلـك الفضـاء، خلـف ذلـك الشـفق المتقلـب، تتبـع انـزواء الشـمس بعـد الغـروب. أنـي أحلـم بمـا فـي أعمـاق الكـون مـن أسـرار، ومـا خلـف الغـروب مـن عـالمٍ آخـر ينحـدر إلينـا مـع غـروب الشـمس، ولـيس بـالغروب بحـد ذاتـه. أبحـر بلوحـة الشـفق المتغيـرة ألوانهـا مـع مـرور الـزمن، وبالمصـابيح المعلقـة فوق رؤوسنا، بما تسمى درب التبانة...

هـل تصـدقين يـا أمـي أنـي خـلال تتبعـي لمسـار الشـمس، لـم أرَ شفق يومٍ يطابق سابقه إطلاقًا؟

– مـن الطبيعـي يـا بنـي؛ الأرض تـدور وهـي فـي حركـة دؤوبـة مسـتمرة، وبـذلك يتحـرك غلافهـا الجـوي مـع دورانهـا، بمـا فيـه مـن رطوبـة ورياح وغبـرة وضـباب وسـحب وزمـن، فيكـون لهـا تـأثير علـى الألـوان. وتلـك الألـوان تعتمـد كليًـا علـى درجـة الرطوبـة والحـرارة وحركـة الـريح فـي الأفـق. لـذا يبـدو لنـا الشـفق بألوان مختلفة، متدرجة بين ألوان الطيف الشمسي.

– أراكِ تفهمـين يـا أمـي، ولهـذا السـبب أنـا لا أرغـب فـي تـرك الغـروب، لأنـي لا أريـد أن أضـيع شـفق يـوم قـد لا أراه. قـولي لي، لماذا تُسمى النجوم في السماء بدرب التبانة؟

– لأنهـا بتوزيعهـا تشـبه التـبن الـذي تنثـره الريـاح بعـد الحصـاد، خلف عربة الحمل.

– يـا أمـي، اتركـي العمـل وتعـالي اجلسـي بجـانبي وتـأملي معـي هذه التغيرات.

– أنـت فاضـي! عليـك أن تصـارح أمـك، بمـاذا تشـغل بالـك؟ إنـي أخاف عليك من الجنون والانحراف.

– يـا أمـاه، أنـا لازلـت طفـلًا، بمـاذا أفكـر؟ هـا أنـت تـرين، مـع الغـروب تقتـرب طيـور الأحـلام مـن ظنـي، فأحـاول أن أكتشـف الكنـوز المدفونـة فـي هـذا الكـون، والتـي لا يراهـا غيـري. حيـث تشـرع الأفكـار تتـدفق مـن الـذهن، كينـابيع سـحر تنبثـق مـن سـعة الخيـال. كـل يـوم تتولـد عنـدي أفكـار جديـدة، لـذا أنـا لا أريـد أن أكـون إنسـانًا عاديًـا كبـاقي البشـر، يجـب أن أتميـز بفكـر أو بهواية.

– عـن أي تميـز وأحـلام وأفكـار تتحـدث؟ هـل جننـت؟ أم تـود أن تجننـي؟ منـذ خلـق الله البشـرية، والأجيـال تمضـي فـي دوامـة ثابتـة، لتـأتي أجيـال تكمـل المسـيرة وتـدخل ذات الدوامـة، وهكـذا دواليـك. أنـت لازلـت طفـلًا صـغيرًا، عـش حياتـك وطفولتـك، ولا تعقّد نفسك في أمور أكبر من قدرات عقلك.

– شـكرًا يـا أمـي علـى نصـحك، ولكـن لا تقسـي علـيّ، دعينـي أعـيش حالـة أجـدها توسّـع مـن مـداركي وإدراكـي، وتـنفض الغبـار عن مخي.

كنـت أخجـل أن أبـوح لهـا بـأحلامي، فقـد كنـت لا أزال طفـلًا دون العاشـرة مـن العمـر. بصـراحة، كانـت تـراود مخيلتـي ثلاثـة أمـور

عظيمة، تمثل قمة أحلامي، أمورًا حياتية لا يمكن الاستغناء عنها. تمنيت أن أمسك بضفائرها، بتلابيبها، أن أحققها ولو على مضض، أن أغور في تفاصيلها، وأن...

كنت أهجس بشيء من اليأس كلما طرأت تلك الأفكار على ذهني، لعجزي عن تحقيقها. لكنها كانت مجرد أمنيات طفل، طفحت على صفائح الخاطر دون وعي، راودتني في سنٍ مبكرة، وُلدت من وحي الخيال، وكشفت لي حجم وعيي مقارنة بأقراني. ما إن تلبث في الذهن، حتى تصبح أمنيات أتغنى بها، أحاول أن أنمّيها، أتبع سرّها مع مرور الزمن.

لا أذكر بالضبط متى بزغ ذلك النبوغ، لكنني أذكر أنه كان قبل سن العاشرة بسنة أو اثنتين. كانت مجرد إرهاصات طفل بريء، ودّ أن يطير مع العصافير والبلابل في فضاء الحب والحرية، يتنقل بعصف ذهنه من غصنٍ إلى آخر، خلف شفق سعادة مزهوة، وأحلام معلقة في جوف الزمن. كنت أراها في مخيلتي دون أن أمسك بخيطٍ من خيوطها. ثم أحيلها إلى أهداف. تحولت إلى فكرة وتطبيق، إلى سحرٍ وسعادة تجلّت في مخيلتي، وكأن سناء برقٍ لجّ في ذهني، فأغشى عينيّ لأتبع شغفي. هاجس من السحر المشاع، أراه كخضرة الأشجار وزرقة السماء، يعمّ خيالي. ألتمس فصوصه كتلك القواقع المنثورة على شاطئ البحر، كنجومٍ متلألئة في سماء الظن، وهي تهادن ضوء القمر في أوقات السَحَر.

هكذا صرت أرى تلك الأحلام قريبة من ظني، تشعّ كومضة تستبيح ظلمة النفس. أهجس بها كقارب أمنيات يعوم في فضاء

الـروح، كأصـدافٍ مبعثـرة تخفـق تحـت قـدميّ. حالـة هسـتيرية غريبـة، مـن تلـك التـي تجعـل الفـرد يتمسـك بهـا كتمسّـك الطفـل بكفاف أمه. إنها حالة غريبة... والأحلام بريئة.

ومـع تقدّم العمـر، كبـرت تلـك الأحـلام، وتوسّـعت مـداركها. غـدت لهـا عيـون وأجنحـة وصـورٌ حقيقيـة فـي فضـاء الفكـر. صـارت جـداريات معلّقـة علـى أجنحـة القلـب، صـارت أوسـع ممـا كنـت أتوقعهـا. صـارت بروجًـا لأمنيـات جميلـة أسـعى لتحقيقهـا، أضـحت فسيفسـاء عشـقٍ وأهـدافٍ أبغـي بلوغهـا، وإن كانـت غـائرة فـي جـوف المسـتحيل، لصـعوبة الوصـول إليهـا وضـعف إمكاناتي.

تلـك الأمنيـات الغريبـة، ترتبـت علـى جـدران الفكـر حسـب الأولوية، وكلوحاتٍ مزهوة، أتمعّن بها كل يوم، وكما يلي:...

أولى الأمنيات: الزواج من فتاة أحلامي

منـذ نعومـة أظفـاري، سـكنت مخيلتـي صـورة لفتـاةٍ لـم تفـارق ذهنـي قـط، حتـى فـي لحظـات ضـعفي ويأسـي. كانـت تلـك الأمنيـة معلّقـة فـي سـماء فكـري، كتعلّـق النجـوم بسـقف السـماء، تتـوهج فـي داخلـي كلمـا أغمضـت عينـي، وتزورنـي كطيـفٍ مـن حلـمٍ بعيد.

كبـرت وكبـر معـي ذلـك الحلـم، وتجلّـت ملامحهـا شـيئًا فشـيئًا، حتـى غـدت كالشـمس تشـع فـي ذهنـي. كنـت أتأمـل وجـوه النسـاء مـن حـولي، أبحـث فيهـا عـن تفاصـيل وجههـا الغـائر فـي أعمـاقي،

كـأنني أفـتش عـن سـرٍ دفـينٍ فـي ملامـح المـارة بشـيء مـن المستحيل.

فـي الليـل، تتحـول تلـك الأمنيـة إلـى قمـرٍ يسـتبيح عتمـة ليلـي، تزورنـي فـي المنـام كرسـول عشـق، تحـاورني، تشـدني إليهـا، وتغمرنـي بعطفهـا وحنانهـا، ثـم تختفـي خلـف سـديمٍ مجهـولٍ مـن الـزمن. تـأتي مـن عـالمٍ غريـبٍ لا أعـرف لـه موطنًـا، لكننـي أؤمـن بوجودهـا، وأشـعر أنهـا تنتظرنـي فـي مكـانٍ مـا، فـي محطـةٍ مـن محطات العمر.

ذلـك الحلـم كـان دافعًـا لـي، يحثنـي علـى الصـبر والتأمـل، كـأنني أشـحن ذاتـي بعواطـف تقـودني إليهـا يومًـا مـا. كنـت أهفـو خلفـه كطفـلٍ يتأمـل لعبتـه، أو كمـريضٍ يتـوق للشـفاء. لـم يكـن مجـرد ظـن، بـل يقـينٌ ينمـو فـي داخلـي كجـوهرة، يـزداد بريقهـا مـع كـل فجرٍ جديد.

أراهـا تنـاديني مـن خلـف حـاجزٍ ممـوه، يـأتيني صـوتها كترددات تخفـق فـي عمـق الفضـاء، تمـلأ قلبـي بالرجـاء. هـذا التخـاطر لا بـد أن يكـون لـه وجـودٌ حقيقـي فـي زمـنٍ مـا، ومكـانٍ مـا، سأصـل إليـه يومًا، وسألتقي بها.

تلـك الأحـلام كانـت تلسـع مشـاعري الراكـدة، تهيجهـا، ثـم تختفـي مـع أنفاسـي المحترقـة، عائـدة إلـى ذلـك السـديم البعيـد. لكنهـا تتـرك أثـرًا، تـوقظ فـيّ الحنـين، وتـدفعني للبحـث عـن سـرها، عـن تلـك الفاتنـة التـي أصـبحت جـزءًا مـن كيـاني، مـن إرهاصـاتي، مـع كـل لحظة أضع فيها رأسي على الوسادة.

الأمنية الثانية: أن أكون ذا مال وجاه

لطالما راودني حلمٌ ملكي، لا يشبه أحلام العامة، بل يتجاوزها إلى عوالم من السطوة والرفاه، حيث أكون أميرًا من زمنٍ غابر، أمتلك مقاطعة زراعية تتوسطها بحيرة رقراقة، تحيط بها قمم خضراء كأنها تيجان الطبيعة، وفي قلبها قصر أبيض شامخ يطل على صفحة الماء، تحفّه الحدائق، ويعجّ بالخدم والحشم، وتنتشر حوله سفن الصيد، وجيش من العبيد، وطائرة تحلق فوقه كرمزٍ للسيادة المطلقة.

كنت أرى نفسي أقرب للملوك من عامة الناس، ملكًا في تفكيري، في خيالي، وفي سلوكي. لم أكن طفلًا عاديًا، بل كنت أمتلك عقلًا يسبق سني، وخيالًا يطوف في مجرات لا تطالها عقول الآخرين. كنت أبتكر أفكارًا لم أرها، ولم أسمع بها، ولم يجرؤ أحد على تخيلها. أردت أن أجعل من بيتي متحفًا ومزارًا، يدرّ عليّ المال دون عناء، ويخلّد بصمتي في ذاكرة الزمان.

تخيلت قريتي الصغيرة وقد تحولت إلى مدينة من نور، أبراجها تتعلق بالنجوم، وسماؤها مزينة بأقمار وشموس، وشوارعها عائمة في الفضاء، تسير فيها مركبات على هيئة فراشات تخفق كأجنحة الطيور. أردت أن أزرع فيها جنائن وارفة كحدائق بابل المعلقة، تفيض بالألوان، وتزخر بالنباتات النادرة، من قطبية واستوائية، وتحتضن متحفًا بيئيًا يجمع الطيور والحيوانات، والزواحف والحشرات، وأكواريومًا يعرض أندر الكائنات البحرية.

رغم أنني نشأت في قرية ريفية تفتقر لأبسط مظاهر المدنية، إلا أن خيالي كان يأتيني من عمق السدم، من مجرة بعيدة، مليئة بالتناقضات، لا تخضع لقوانين الواقع. كنت أستنبط أفكاري من عالم الغرابة، وأصوغها كأنها رؤى نبوية.

في إحدى المرات، خطرت لي فكرة عظيمة: أن أمد جسورًا من النهر المنحدر من جبال الشمال إلى صحارى الجنوب، فتنساب المياه عبر ثقوبٍ في الجسور، فتتحول إلى شلالات دائمة، تلطف الأجواء، وتستقطب السياح، وتحوّل القفار إلى جنائن عدن، تلهم الشعراء والفنانين. طرحتها على أبي وأصدقائه، فاتهموني بالجنون، لأنهم لم يدركوا أنني أبحث عن اللمعة في الجوهرة، عن السر في الجاذبية، عن الفكرة التي تغير وجه الأرض.

كنت أدوّن تلك التخيلات أحيانًا، وأحيانًا تذروها الرياح، لأن مجاديف السعي انكسرت تحت وطأة واقعٍ قاسٍ، وأبٍ متسلط، ومجتمعٍ متخلف، لا يحتفي بالنوابغ، ولا يرعى الأفكار، بل تحكمه إدارة فاسدة، تسيطر عليها أيادي اللصوص والدجالين، ممن لا يبالون بمصالح الوطن، ولا يحلمون بما أحلم.

الأمنية الثالثة: امتلاك آلة زمن خارقة

تمنيتُ لو أمتلك آلة زمنٍ فريدة، لا تعمل بالوقود أو الطاقة، بل تنطلق بسرعة البرق على مبدأ تخاطر الأفكار. آلةٌ لا تُقيدني بجسدٍ أو مكان، بل تجعلني كالشبح، أتنقل بين المواقع

والأزمنة، وأتواجد في أكثر من بقعة في آنٍ واحد، ككائنٍ يدور في فلكٍ لا تحدّه قوانين الفيزياء.

تلك الآلة ليست مجرد اختراع، بل امتدادٌ لحلمي العميق في أن أعيش بطون التاريخ، أن أعود إلى العصور الوسطى والحجرية، وأغوص في زمن الأساطير، أرافق الأنبياء والملوك العظام، أستقي من حكمتهم، وأستلهم من بصماتهم ما يميزني. أردت أن أعيش طقوس الشعوب القديمة، أن أتنقل بين الأمم الغابرة والمستقبلية، لأجمع من كل حضارة جوهرها، ومن كل حقبة تأملاتها، فأصوغ منها أفكاري ورؤاي.

شغفي بالحضارات لا يعرف حدودًا. أردت أن أمعن في حضارة وادي الرافدين، في سومر وأكد وبابل وآشور، أن أكتشف سر الكتابة والأرقام، أن أفهم كيف أبدع البابليون في الفيزياء والجبر، أن أستوعب خفايا بناء الأهرامات، وأسرار التحنيط التي حيرت العقول. أردت أن أزور حضارة الفراعنة، والسبأيين، والإغريق، والهنود، وأن أستشرف الحضارات التي لم تولد بعد، تلك التي ستملأ الأرض مستقبلًا.

كنت أتوق لمعرفة كيف سيبدو وطني في الحقب القادمة، ما تأثيره، وما بصمته على العالم؟ كيف ستتطور التكنولوجيا؟ كيف ستتغير مفاهيم الحياة؟ أردت أن أكون شاهدًا على كل ذلك، لا من خلال الانتظار، بل عبر آلةٍ تستجيب لنبض الفكرة، فإذا ما انفلقت صرّة التخيل أمامي، انطلقتُ نحوها،

لأعـيش أحـداثها، وأغـوص فـي تفاصـيلها، دون أن أجهـد نفسـي في اكتشافها.

بهـذه الآلـة، أكـون سـيدًا علـى الـزمن، أتنقـل بـين الشـعوب، أُحسـن التغييـر، وأخـدم الإنسـانية وفـق مـا تقتضـيه الحكمـة والصـالح العـام. إنهـا ليسـت مجـرد أمنيـة، بـل حلـمٌ مجنـون لا ينالـه إلا مـن كـان لـه شـأنٌ عظـيم عنـد الله، كـالنبي سـليمان، الـذي أُوتـي مـن القدرات ما يعجز عنه البشر.

2- بخل أبي

حين كبرت ووعيت، بقيت على ما أنا عليه، أعيش في غيبوبة تلك الأحلام. صرت أكثر خيالًا وتمعنًا فيما يدور حولي وفي أعماقي، أفتش في خصوصيات ذاتي وتوافقات الغد، تلك التي ظلت تدور في أروقة الذهن كدوامة من الحذر والطموح، تراود مخيلتي بين حين وآخر. وإن كنت أظنها أحلامًا سادرة لا طائل من ورائها، إلا أنني كنت أهجس بها، تكبر وتنتشي في ذهني مع تدحرج سني العمر. أضحت لها أفرع دقيقة كجذور الشجر، تغوص في شعابي، تصاحبني، ترافقني كرفيقة درب وظل ملتصق بي، رغم عجزي ويأسي من الإمساك بطرفها.

تلك الأفكار بقيت عالقة في مخيلتي كالقدر، لا تنفك عني ولا أستطيع نسيانها. بل على العكس، صارت تفيض في ربوعي بأفكار جديدة تولد من بعضها، حتى بتّ حين أنام أفترش حزم الأفكار على وسادتي، أتنقل فوقها من موضع لآخر، أحتضنها كحبيبة حتى يغشيني الوسن.

أحيانًا أشعر بها تتلألأ في ذهني كالنجوم، تتقد في داخلي كلهفة الشوق، ترفق بي كرفيقة، تتأملني وأتأملها كصديقة، تداعبني وأداعبها حتى تذوب الوشائج بيننا لشغفي وتعلقي بها. لا أهجس بها أفكار عابرة، بل كيقين حي يقمص ذاتي، كجنٍّ أتلبس به، كملائكة رحمة تهادنني، كروح مقدسة تهامس

روحي، ترشدني، تهديني إلى غاية أتوقها وأسعى خلفها. في الحقيقة، كنت أهجس بذاتي مسيّرًا أكثر مما أنا مخيّر.

حالة متذبذبة... ماذا أسميها؟ جنون، حماقة، خبل، رعونة، طيش، عته، لوثة، مسّ، نزق، وسواس... إنها أشبه بكل ذلك. حالة لا وصف لها، تداعبني بأفكار شيطانية غريبة لا يفكر بها إلا النابغ. أفكار فتنة تدل على نبوغ مبكر، حالة عبثية غير مستقرة تجري في أعماقي كسيلٍ من الفيض.

تلك الأفكار كثيرًا ما تفسر لي الأحداث، وتكشف لي طرق الوصول إليها بسرعة تسبق الحسابات والمنطق. أراها في ظني أهدافًا مستقبلية، أتأملها كأقدار أشتاق إليها. لذا، من الضروري أن أصونها، أو أصوغها بما يتوافق مع أحلامي الفتية، لأنها ستشكّل شخصيتي مع مرور الزمن، تلك الشخصية التي لا تُقدّر بثمن. بها سأخطف الأضواء، وسأختلف عن شخصية أبي وعن الجميع، سأتميز بها عن سائر أقراني.

هذه الحالة من التقلبات أصبحت روتينًا يوميًا، جعلتني أمتثل لحظوظ شخصيتي، وأعبّر عن سعة مداركي، رغم أنها ترهق كاهلي، وتذللني، وتدفعني نحو خطوط الفشل بسبب ضعف إمكانياتي المادية وصغر سني.

لقد أذلتني فعلاً حين اصطدمت بها في بعض محطات المجتمع، خاصة عند تقاطعها مع أفكار أبي. ومن خلال تأملها، بدأت أبحث عن صيغ غير مألوفة لتحقيق الممكن

منهـا، محـاولًا اسـتخراج الجـوهرة مـن القمقـم، وإبـراز ولادتهـا مـن جـوف المسـتحيل، لأجعلهـا تـتلألأ أمـام الجميـع بتطبيقاتهـا. حالـة مـن الهـوس دفعتنـي إلـى الخـروج عـن طبـاعي المعروفـة بـالانزواء والتخفـي، أو الوحـدة والتوحـد؛ صـرت أتقنـع بهـا، أتوشح بها، أرتديها في تعاملاتي اليومية.

علـى سـبيل المثـال، كنـت أنـاقش ذاتـي بـذاتي: مـاذا لـو اسـتخرجنا مـن خشـب الأشـجار مـادة زلاليـة تُسـتخدم فـي بنـاء الجـدران؟ أو مـادة بلاسـتيكية تُفيـد النـاس فـي تـدوير حاجـاتهم؟ أو حتـى شـحنة كهربائيـة؟ لا أدري إن كـان ذلـك ممكنًـا، كـون الخشـب مـادة عضـوية، لكننـي أحيانًـا أشـعر بجسـدي يحتـوي علـى شـحنات كهربائية ساكنة، رغم أنه مادة عضوية.

كنـت أحـاول أن أخلـق مـن اللاشـيء شـيئًا. فالأشـجار مـادة عضـوية، والبلاسـتيك يُصـنع مـن غـاز الإيثيلـين، وهـو مركـب عضـوي مكـوّن مـن ذرتـين كربـون وأربـع ذرات هيـدروجين. قـد يكـون ذلـك جـائزًا. أمـا الموصـلات فهـي عناصـر فلزيـة، والخشـب مـادة غيـر فلزيـة، وهـذا التنـاقض يـدفعني إلـى الإبحـار فـي المسـتحيل. لـذا خطـرت فـي بـالي أسـئلة، مـن بينهـا: هـل يمكـن تحويـل المـواد اللافلزيـة إلـى فلزيـة، أو العكـس، عبـر تفـاعلات كيميائيـة معينـة؟ مـثلًا، باسـتخدام الضـغط العـالي؟ فبالضـغط العـالي يتحـول الخشـب إلـى فحـم، والفحـم يولّـد طاقـة جبـارة. تـرى، لـو حـدث ذلـك كمـا يحـدث للفحـم، فحتمـاً سـتكون طفـرة علمية في مجال الصناعة.

حينها كنت صغيرًا، كانت تلك الأفكار تطرأ على ذهني وتختفي دون أن تستقر. لم أكن أدرك حينها مسألة نسب مواد الكون الثابتة، بل كنت أتحرك وفق ضوء نظرية داروين حول أصل الإنسان. فإذا كان الإنسان، كما يدّعي داروين، أصله قرد، فلمَ لا يمكن تحويل الخشب إلى حديد؟ هههههه... كانت مجرد مزحة، لا أكثر يا داروين. أين كان عقلك يا "عبقري" حين أطلقت نظريتك الغبية تلك؟ في لحظة سخرية، ظننت أنك كنت أذكى أفراد عصرك، لذا صدقوك، ولم يستطيعوا تفنيد نظريتك لشدة غبائهم.

لكن الحقيقة؟ لم يكن غبيًا إطلاقًا. بل كانت دوافع الكنيسة في ذلك العصر تتطلب نظرية تبرر السيطرة على السلطة، فابتكر داروين فكرته في زمن مضطرب. لقد ضحك على الآخرين بدعابة، فصدقوها، وأيدوه على تدوينها. لم تكن تلك الأفكار سوى لعبة ذهنية، تمسك بها البعض لغاية في نفس يعقوب.

هكذا كانت تقلبات فكري تتجدد وأنا طفل فتي، حتى أن الكثير ممن يعرفونني، ولهم باع في المعرفة، باتوا يسجلون عليّ ملاحظاتهم: شعوذة، جنون، خيال مفرط. لكني لم أكن مجنونًا، بل كنت أبحث عن النظرية والتجربة من وجهة نظري الخاصة. ومن بين من هزئوا بي: رفاقي في المدرسة، وأبي المتخلف الذي نبذ أفكاري. بدلًا من أن يشجعني ويفتح لي مدارك عقلي، حمل عليّ بالسوط، وضربني ضربًا مبرحًا، وكأن أفكاري كانت انتقاصًا من أفكاره. هههههه...

فـي إحـدى المـرات، اقترحـت عليـه فكـرة قابلـة للتطبيـق: أن نفـتح إلـى جانـب مزرعـة الأبقـار التـي يمتلكهـا مصـنعًا لإنتـاج العلـف الحيـواني والـورق، مسـتفيدين مـن حـوض الأشـجار القريـب مـن القريـة كمصـدر جيـد للفكـرة. لـم تـرق لـه الفكـرة، فضـربني بكفـه الغليظـة علـى وجهـي، فهربـت مـن أمامـه، ومـن ملاقاتـه ومناقشته. قال لي حينها:...

– كفّ عن تخاريفك يا مجنون، يا متخلف.

هربـت مـن بـين يديـه دون أن أرد، فقـد كنـت أدرك حجـم تخلفـه قياسًـا لأفكـاري. لـذلك فضّـلت السـكوت، كمـا كانـت تنصـحني أمـي دائمًـا. كنـت أفكـر: لـو طـاوعني أبـي، لأجعـل مـن نثـار خشـب الأشـجار الصـنوبرية مـادة جيلاتينيـة تنشـف بحـرارة الشـمس، فتكـون عـازلًا للجـدران وحيطـان الأبنيـة، كتلـك التـي تُصـنع مـن الكتـل الإسـمنتية. كنـت أطمـح لصـناعة جـدران مـن نثـار الخشـب المكبـوس، المعجـون بالإسـمنت، والتـي يمكـن تلوينهـا حسـب الرغبة، وتتحمل قسوة برد الشتاء وشدة حر الصيف معًا.

كنـت أرى نفسـي عبقـري زمـاني، أعـيش عيشـة الملـوك فـي عـالم لـيس عـالمي، عـالم ميتـافيزيقي لا يرتقـي لعـالم البشـر، ولا يمكنهم إدراك نمط تفكيري أبدًا.

كـم تمنيـت لـو أن أبـي توافـق مـع تطلعـاتي. لقـد كـان لـه شـأن كبيـر بـين أبنـاء الرعيـة، فقـد أنعـم الله عليـه بالجـاه والغنـى والصـحة، مقارنـةً بأقرانـه. كـان يمتلـك مزرعـة أبقـار ضـخمة، يعمـل فيهـا معظـم شـباب القريـة فـي ذبـح العجـول، وبيـع اللحـوم ومشـتقات

الحليب، ودبغ الجلود، إضافة إلى الرعي والحراسة والتطوير والتصدير. كانت تلك المزرعة تدر عليه أموالًا طائلة، إذ تجاوز عدد أبقاره الألف.

لكن رغم هذا الثراء، اشتهر بين الناس بالبخل، لا سيما مع أهل بيته. تجرد من الاستمتاع بما يملك، وافتقر إلى الطموح في تطوير مزرعته، سواء على المستوى الصناعي أو الحضري أو العلمي أو الإنتاجي أو الترويجي. لم يسعَ لجعل منتجاته تضاهي ما يُعرض في أسواق الدولة، رغم أن قريتنا لا تبعد عن بغداد سوى ساعة واحدة.

بسبب بخله وضعف خبرته العلمية، لم يستورد آلات حديثة للتصنيع والتعليب، وظل يعتمد على الأساليب اليدوية القديمة، البطيئة، محدودة الإنتاج. أضف إلى ذلك طبعه البليد، وتسلطه الذي عرف به، وشغفه بالنزوات التي لا تنتهي. لم يكن ذا حضور بهي، بل كانت ثروته هي التي تمنحه الاحترام بين الناس، لا شخصه ولا خلقه.

كان يرفض الاستماع للموسيقى، رغم أنه لم يكن مؤمنًا في قرارة نفسه، لكنه أخفى ذلك خوفًا من ملامة المجتمع. لم يكن ملتزمًا دينيًا، فلم أره يصوم رمضان، أو يصلي في المساجد، أو يقرأ كتابًا أدبيًا طوال حياته. حصر نفسه بين جدران البارات وسيقان العاهرات، وجمع المال لينفقه على نزواته مع شلة الغانيات.

فـي ميـزان القـيم الإنسـانية، لا يعـد مـن البشـر كونـه كائنًـا تافهًـا، لكنـه للأسـف أنـه أبـي. اسـمي مـرتبط باسـمه، وملامحـي تحمـل شـيئًا مـن ملامحـه. صـوره تملأ ذاكرتـي، وزعيقـه يطـنّ فـي أذنـي كطنـين الـذباب. يلتصـق بـي، أو بـالأحرى، صـار قـدري ملتصـقًا بقدره، كما تلتصق ذرات الماء ببعضها فوق جمرٍ ونار.

هـذه الصـفات جعلتـه متمسـكًا بعنجهيـة فارغـة، ينجـرف مـع ريـح البخـل نحـو وهـدة القسـوة، مـدركًا أن موقفـه الضـعيف يجـره إلـى عجـزٍ يمنعـه مـن المواجهـة، ومـن فـرض إرادتـه علـى الآخـرين. ركنتـه الأيـام فـي زاويـة الوحـدة، ونبـذه المجتمـع بعـد أن تكشـفت رداءة طبعـه وسـوء خلقـه. صـار شـبه معـزول، إلا مـن قلـةٍ ممـن لـم يجـدوا مصـدر رزق سـوى مزرعتـه، يخضـعون لسـلطته مـن أجل لقمة العيش، لا أكثر.

فيمـا كانـت علاقتـه بنـا شـكلية، سـفيهة، وهميـة، وذلـك لسـمة التملـك التـي يهواهـا، كـان يعتبرنـا جـزءا مـن مقتنياتـه، فلـم يـدر علـيّ وعلـى أمـي ممـا فضـل الله عليـه إلا بـالنزر اليسـير. لـم يبسـط كفيـه بـالتي هـي أحسـن، جعلهـا مغلولـة إلـى عنقـه، فبـئس اليـد المغلولة والأب البخيل.

لقـد قصـر فـي تربيتـي كثيـرا، حتـى انـي كنـت أحسـد أبنـاء الفقـراء علـى حسـن تـربيتهم وعلـى اصـرة العلاقـة التـي تـربط بينهم وبـين أسـرهم.. فلـم تخطـر فـي بالـه بـأني كنـت أعـاني كثيـرا مـن أجـل متطلبـاتي الذاتيـة والمدرسـية منهـا، أعـاني أبسـط أمـور الحيـاة لأشـب علـى حـب العلـم، كـي أدرك الحنكـة والفطنـة والتَـدْبِير والحَصَافَة والخِبْرَة في الحياة.

كان يأمل أن أكون أحد عمال مزرعته، فلم يُقحمني في المدرسة إلا بعد جدال وصخب أثارته أمي معه. قصر في دعمي بمجالات التعليم والسفر والفن والقيادة، بل حتى في العمل العام، رغم أنني ابنه الوحيد. ولي أخت صغرى، بثينة، لم تتجاوز العامين، تعيش في أحضان أمي المنهكة نفسياً وفكرياً وجسدياً، وهي نفسها كانت بحاجة إلى رعاية صحية نتيجة الإهمال الذي تعرضت له منه.

أظنه لا يعرف معنى الشكر، أو لعله لا يعترف به أصلاً. لم يشكر الله على النعم التي فاضت بين يديه. لو تواضع قليلاً وتخلى عن غيّه وكبريائه، لتغيرت أموره وأمورنا كثيراً. لربما كسب محبة الناس ومحبتنا، ونعمت صفاته الحسنة، ورقت تعاملاته مع من حوله. لو دخل المدرسة، لتبدلت طباعه، وفهم الحياة وسير الأمور، ولتميز بين أقرانه برجاحة عقله التجاري، وتمسك بالخير وتخلى عن صبغة الشر.

هو فارغ من كل ميزة، سواء كانت اجتماعية أو علمية أو فنية. ولو جمعنا صفاته الحسنة في بوتقة واحدة، لكانت النتيجة مخزية. لو دخل المساجد، لتمكن من التمييز بين العدل والظلم، بين الجهل والعلم... لكنه لم يجهد نفسه في تربيتي، فتلقيت تربيتي من أمي المطلقة، ومن الشارع، ومن صحبة أولاد الذوات الذين اندمجت معهم، واعتبرتهم إخوتي وأصدقائي ورفقائي.

بسبب نزواته، تشققت العلاقة بينه وبين أمي حتى انتهت بالطلاق، يوم تعلّق بغانية تُدعى "فتنه". سار خلف نزواته، فانحرفت به دفة القيم نحو الندم. لم يكترث لإسفافه الواضح

تجاهنا، وأضاع عمره في هدر الأموال بين برك الملذات وكهوف الشهوات. اهتم بسوق النخاسة، باحثاً عن الحسناوات، وتسكع خلف مآرب الذات، حتى جرّته إلى مستنقع الرذيلة في الحانات، بعد أن تعلق بالموبقات. ركنته الأيام في زوايا الحانات الرطبة، وحيداً كحشرة لا قيمة لها.

لقد أساء إلى قدره بتصرفاته غير المسؤولة، حتى خرّ إلى درك البائسين في نظر من يعرفونه. نعم، النفس أمّارة بالسوء، لكنه لم ينهها عن هواها، ولم يراجع نفسه في مواقفه المشينة. بات يعيش على نزواته كالعفن، لا يستطيع التخلص من دبق الغايات، بعد أن صارت أفكاره أشواكاً تخدش النفس، وأضحت الحالة جزءاً من حياته، كالخمرة التي تسري في عروقه.

دارت به الأيام، وسنّت له الأقدار سننها حين أعمت بصيرته امرأة الهوى "فتنه"، فطغت فتنتها على أهواء قلبه، حتى تبع ظلها وتخلى عن قيمه وزوجته ورفيقة حياته. بلحظة غفلة، ظفرت به، فأنسته تاريخ والدتي ووفاءها وحبها له. ارتخى أمام رضاها، تلك اللعوب التي داست على كرامته، ولم يكن يهمها منه سوى جيبه.

أغرم بها، عشقها، تيم بها بعد أن لفظها عشاقها، حتى اشترطت عليه الزواج، فتزوجها وسجل جزءاً من أملاكه باسمها. ثم أرغمته بسلطانها على نبذ والدتي المسكينة، تلك

العفيفة التي ضحت كثيراً من أجله، وبنت جانباً مهماً من ثروته خلال سنوات الجهاد، بصبرها وتأنيها في أيام القحط والجلد، حتى أوقفته على قدميه في السوق، ومكّنته من تكوين ذاته وتنمية ثروته التي فاضت بين يديه كنبع جارٍ.

تعمل مقابل بضعة دنانير تجنيها من المغرر بهم. هي معروفة بين الملأ بالملاية وقارئة الكف والفنجان ظاهريا، وفي الخفاء تلمع وتدهن سُرَفْ الموبقات بتلك العلاقات.

كنت أشمئز من تصرفات "فتنه"، وكانت هي تبغض وجودي في البيت. لعلها كانت على علاقات مشبوهة لا يعلم بها أبي، إذ اعتادت الخروج من المنزل دون علمه، متجهة إلى دارٍ تقع في الناحية الأخرى من القرية. كنت أشك في نوايا ذلك البيت وسمعته، لا أعرف بالضبط ما الذي كان يجري هناك، لكنني كنت أشعر أن سرًا ما يدور في أروقته، سرًا يبعث على الريبة والقلق.

ومع مرور الوقت، حين كبرت ووعيت، أدركت حقيقة تلك العجوز الشمطاء صاحبة الدار، وفهمت ما كانت تخفيه خلف ستار الملاية وقارئة الكف والفنجان. كانت تعد علاقات مشبوهة بين النساء والرجال، تمارس القوادة مقابل بضعة دنانير تجنيها من المغرر بهم. كانت معروفة بين الناس بوجهها الظاهري، لكنها في الخفاء تلمع وتدهن سُرَف الموبقات، وتغلف الرذيلة بطلاء من الغموض والتسلية.

أما "فتنه"، فلم تكن بحاجة إلى المال، فهي تقبع على تلٍ من ذهب، إذ كان أبي أغنى رجال القرية. وجدت فيه خزينًا لم تحلم به، صرةً تعلقت بها بشغف، كما وجدت في شخصه عواطف ذابلة، أقنية مودة فارغة، منبوذة، لا تروي غليلها ولا تلمع شبقها. قرأت صفاته جيدًا، وعرفت أنه فاضي القروء من المشاعر، لا يرغب سوى بامتلاك الأشياء دون الاعتناء بها، فمالت بفكرها نحو الانحراف، واستعانت بتلك الشمطاء لمغازلة شبان غرباء، بعدما لمست عجز أبي العاطفي.

في إحدى المرات، منعتها من الخروج من البيت حين شككت بنيتها وغايتها، فصارت تحنق عليّ، وهددتها بإخبار أبي عن سلوكها وتصرفها المشين. وما إن دخل أبي إلى البيت، حتى استغاثت به، واستغلت الفرصة لتشكيني له، بغضت تواجدي في البيت بحجة رغبتي في معاكستها ومجامعتها. ذلك ما جعل أبي يثور غضبًا وحنقًا عليّ، حمل عليّ بيده الغليظة، وهو الذي لا يثق بي إطلاقًا، وضربني ضربًا مبرحًا لم أنل مثله من قبل.

حاولت جاهدًا أن أشرح له التباس الأمر عليه، إلا أنه كان سليطًا، متعجرفًا، ضريرًا، لم يرَ من الأشياء المحيطة به سوى وجه "فتنه". لا يدرك ما حوله من تقلبات وصبغات لا تروقه، استشاط غضبًا، ثم أفرغ غله وغلّ العمل في جسدي، دون أن يمنحني فرصة للدفاع عن نفسي أو كشف الحقيقة.

طردني من المنزل، لأعيش مع أمي المسكينة في كوخ يتكون من غرفة وحمام، في أطراف القرية. أضحى عبدًا مملوكًا

تحت تصرف "فتنه"، كيفما تشاء، لمستُ شخصيتها أقوى من شخصيته المهزوزة، بشهادة أنه لا يتخذ قراراته إلا بمشورتها؛ حتى جعلته ينقطع تمامًا عن زيارة أمي وابنته الصغيرة، شيئًا فشيئًا تناساها، ثم هجرها، ثم طلقها.

لقد طلق أمي الوحيدة، لم يشفق عليها رغم غربتها، كان قد تزوجها بالصدفة حين كان يستمتع في إحدى رحلاته في دول الغرب، أي أنها مقطوعة من شجرة، لا أهل لها ولا سند. لقد وثقت به، وأمنت على حالها تحت ظله حين قبلت به زوجًا لها، في الوقت الذي كانت فيه تتمنى أن تنتشل ذاتها من حالة الإملاق التي ألمّت بأهلها، حيث كانت تعيش في كنف والدها بالكفاف الذي قسمه الله عليهم، حينها رضيت به زوجًا وحبيبًا، لكنها لم تكن تعلم أن هذا الظل سيغدو خنجرًا في خاصرتها.

لقد آثر "فتنة" على أمي، لا عن حب أو قناعة، بل لأنه يفتقر إلى مبدأ يوجه حياته. رجل متقلب المزاج، هشّ الطباع، ينتمي إلى برج هوائي لا يعرف الثبات، يميل كما يميل الغصن تحت وطأة الرياح، يتبع نزواته وغرائزه دون وعي أو تروٍ. حياته كانت أسيرة البارات ومزارع الأبقار، يستلهم قراراته من عبق الكأس، ومن نشوة السكر وشطط السُكرات. قد يرأف بمن يشاء، أو ينتقم ممن لا يروق له، يطلّق متى أراد، ويتزوج من يشتهي، دون اعتبار لأي قيمة أو مبدأ. قراراته وليدة لحظات مزاجية، تتشكل حسب الجلسة، وصفاء النفس، والمزاح، وسحر المكان. فإن استلهم فكرة ما، نفذها فورًا دون الرجوع

إلـى أي منطـق أو مرجعيـة، فهـو سـريع التـأثر، متسـرع فـي إبـداء الرأي.

حـين التقـى بــ"فتنة"، كـان غارقًـا فـي عبثـه، سـكرانًا فـي إحـدى الحانـات، مسـلوب الإرادة، يتبـع غوايتـه بالنسـاء فـي ليلـة مـن ليـالي رأس السـنة. ومـا إن أفـرغ كـأس النبيـذ حتـى اسـتدعى المـأذون، وخـتم زواجـه منهـا فـي لحظـة تحـدٍ لنفسـه ولرفاقـه، مقابـل مهـرٍ بـاهظ لـم تحلـم بـه قـط. تفـاخر أمـام شـلته بدفعـه، وكأنمـا يشـتري بهـا مجـدًا زائفًـا. أمـا "فتنـة"، فقـد رأت فيـه كنـزًا ينتشـلها مـن بئـر الفقـر، ومـن حيـاة التنقـل بـين الأحضـان، نميـرًا جارًا تغرف منه لتديم ألقها وتثبت وجودها.

أمـا أنـا، فعـاطفتي الرهيفـة تجـاه نفسـي والآخـرين كانـت سـببًا فـي بـروز عقـدٍ كثيـرة فـي حيـاتي. تلـك العاطفـة أرهقتنـي، أخلّـت بتـوازني فـي مواقـف عـدة، أدخلتنـي أنفاقًـا مظلمـة، وعرقلـت سـعيي فـي مطبـات لـم أكـن سـببًا مباشـرًا فيهـا، بـل كانـت نزواتهـا هـي مـن دفعتنـي نحوهـا. اجتـاحتني تلـك العاطفـة علـى حـين غفلـة، ففاضـت فـي داخلـي كعيـون متدفقـة، تتبـع حسـب جدليـة المواقـف، وتبرز أمامي عبر الصدف أو أفعال خارجة عن إرادتي.

لكنهـا، رغـم كـل شـيء، أنبتـت فـي داخلـي محبـةً للنـاس، وإنسـانيةً فياضـة، شـعرت بهـا تملكتنـي، وكأنهـا جـزء مـن محيطـي. وجـدت نفسـي أرغـب فـي مكافـأة ذاتـي بتقـديم الخيـر للآخـرين، فانخرطـت فـي أعمـال إنسـانية شـتى، دون أن أبحـث عـن مكافـأة أو مكانـة أو قيمـة ماديـة، لأننـي شـعرت أن تلـك الأعمـال تمثـل جـوهر ذاتـي الطيبـة المغروسـة فـي أعمـاقي. كنـت أشـعر براحـة نفسـية حـين

أقدم مساعدة لكائن ما، أو أعتني بمريض أو عجوز حتى يستعيد عافيته.

ومن هنا، راودتني فكرة تأسيس فرقة مسرحية في قريتي، وإنشاء مسرح عائم يطوف القرى، يعكس أحداث الحياة ونتاجاتها، ويعالج قضايا الصراع الأزلي بين الخير والشر. أردت أن أوضح للناس، من أمثال أبي، الفرق بين الحق والباطل، عبر مواقف تراجيدية وكوميدية تجذب انتباههم، وتعيد إليهم الطُرَف والنكات التي غابت عن ألسنتهم بفعل الكد والعناء، وبسبب إرهاصات العمل. عسى أن أجد لهؤلاء المرضى من البشر، أمثال أبي، علاجًا ناجعًا يحدّهم عن خطاياهم، ويضع بين أيديهم حلولًا ميسّرة لعُقدهم المتجذرة.

لذلك أجد الطيبة غالبة على طبعي، هي البوصلة التي توجهني، والنبض الذي يسيرني. توجهاتي دومًا على النقيض من توجهات أبي، بل إن الطيبة تهيمن على كل ما أُقبل عليه، تسيطر على قراراتي ومشاعري، وتغمرني حتى في أدق التفاصيل. الطيبة التي أحملها في قلبي لها طابع فريد، سلسة، نقية، خالية من التعقيد، لا تضاهيها طيبة أخرى في نظري. أجد نفسي أجهش بالبكاء إذا ما رأيت حمامة ميتة، أو فقيرًا يرتجف من البرد تحت أسماله الممزقة، أو جائعًا يتلوى من ألم الجوع، أو طفلًا فقد لعبته، أو... أو أي مشهد يلامس إنسانيتي.

كل ذلك على النقيض تمامًا من تصرفات والدي. كنت دائمًا أُرهق نفسي بفكرة أن الناس تقارن بيني وبينه، وكان ذلك

يـؤلمني كثيـرًا. حتـى أننـي كنـت أقتطـع مـن مصـروفي اليـومي، الـذي أحصـل عليـه منـه، أو مـن أجـري حـين اشـتد عـودي، لأتصـدق علـى المسـاكين. وبسـبب بخلـه، كنـت أحيانًـا أسـترق مـن جيبـه بعـض الـدراهم، ثـم أجهـد فـي عملـي كـي لا أضـطر إلـى مـدّ يدي له مجددًا.

وهكـذا، عشـت سـنوات حيـاتي منزوِيًـا خلـف هالـة مـن الشـك، عـاجزًا عـن أن أكـون كمـا أريـد، غيـر قـادر علـى تحقيـق أحلامـي الفتيـة التـي راودتنـي منـذ الصـغر. كـان ذلـك يـؤرقني، خاصـة أمـام قتـر أبـي ومحاربتـه لأفكـاري، تلـك التـي تمنيـت أن أطبقهـا فـي مجـالات الحيـاة التـي أجـد فيهـا ذاتـي وصـفاتي. حتـى المسـرح البسـيط، الـذي حلمـت بإنشـائه، لـم يسـمح لـي بإتمامـه حـين طرحـت الفكـرة عليـه، ولـم يمنحنـي فرصـة لممارسـة هـوايتي البريئة.

إبراهيم

الظرف الذي كنت أعيشه كان مواربًا، متبجحًا، عنيدًا، عصيًا على الترويض. كلما حاولت احتوائه، زاد خناقه، وجزّ سيفه في خاصرتي، حتى باتت مواجهته تفوق قدرتي على الدفاع عن نفسي وعن والدتي أمام تبجح والدي، وقسوته، وإهماله لنا معًا. لم أتمكن من أن أرمم ضعفها، أو أن أسندها لتحتمل جلد أبي وقسره، ووطأة المرض، وسقم المعيشة الضنكة. كنت عاجزًا عن الصمود، لا أملك من أدوات المقاومة شيئًا. بنيتي الجسدية كانت هشة، عضلاتي رخوة، يداي خائرتان، وجيوبي مثقوبة، خالية من مقومات الصبر، ومن أبسط مقومات الحياة، ومن النقود.

الظروف القسرية نكلّت بي كما نكّلت بي الحالة التي فرضها أبي، مع تقاعس العلاقة بيني وبينه، وبين المجتمع من حولي، نتيجة صغر سني. كنت حينها فتيًا، لم أبلغ بعد، لم أبلغ رشدي، ولا بلغ عقلي مداه، رغم الذكاء الفطري الذي كنت أشعر به، فقد كنت متميزًا عن رفاقي في المدرسة، لا تمر مسألة إلا وأكون في مقدمة من يسعى لحلها. كنت مجتهدًا في المواد العلمية، لكن تنقصني الحكمة، والشجاعة، والقدرة على اتخاذ القرار الصائب.

يكفي ما كنت أتحمله من الإهانات التي كان والدي يزخّها عليّ كالمطر. كلما صادفني في طريقه عصف بي دون رحمة، أو ثار في وجهي كما يثور البركان، كلما ناقضت فكره أو اعترضت على سلوكه. طبعه هكذا: عصبي، مزاجي، لا يعرف للهدوء سبيلًا. تلك العصبية التي تركبه، وتلك القسوة المفتعلة، كانت تترك أثرًا سيئًا في نفسي، وتبني بيني وبينه حاجزًا منيعًا يحول دون أي فرصة للتفاهم، التي إن وجدت، غالبًا ما تأتي عكس ما أنوي له، فتحرف مسار الحوار، وتجهض كل محاولة للاندماج أو التقارب.

بهذه الأساليب والممارسات العقيمة، أجهز على لحظات التأمل، وفرص الخير التي لو أُتيحت، لربما أصلحت ما بيننا ببساطة. لكن العقم الحاد في سلوكه جعل من جلداته المتكررة شاهدًا على جحوده وكراهيته. بأفعاله، كأنه يرسم ختم الأبوة على جسدي الطري، لا ليمنحني الحماية، بل ليزيد من حنقي عليه، حيث تترك السياط أثرها على جلدي لأيام، بل لأسابيع، حتى يخفّ أثرها.

تلك الجلدات كانت تأتي بعد كل جدال، أو اعتراض أبديه على سلوكه، خاصة حين يتعلق الأمر بأمي، التي كانت دائمًا إلى جانبي، تعارض سلوكه الأرعن، وتدافع عني بما تبقى لها من قوة. تلك الحالات خلقت بيني وبينه حاجزًا من الكراهية، حتى بات أحدنا لا يطيق الآخر.

كنت أشعر تجاه والدتي بانكسار داخلي، وبتفاهة في ذاتي التي ركبتها هشاشة وضعف. حالها كان يرثى له، والمسألة كانت

نفسية بحتة، إذ يصعب على الإنسان أن يرى أعزّ من في حياته مكسورة الخاطر، وهي التي كانت سبب وجودي في هذه الدنيا. كنت أراها منهكة، ضعيفة، غير قادرة على تحمل أعباء الحياة، ولا على إعانة نفسها أو فلذات كبدها، دون أن أستطيع تقديم يد العون، أو مساعدة تنتشلها من واقعها المضني، في الوقت الذي كانت فيه بأمسّ الحاجة لمن يمدّ لها يد الرحمة.

في تلك المواقف، كنت أختلق مع نفسي صراعات عبثية، ألوم بها جيوبي الخاوية، وأعاتب شطط فكري، رغم ما نملكه من أملاك تشهد عليها أعين الناس. إلا أننا لم نجنِ منها نفعًا مباشرًا في ظل وجود أبي، وكأنها قمة العقد، تجسيدٌ حيٌّ للتناقض.

صرت أقارن نفسي، ابن أغنى رجل في القرية، بابن أفقرهم، وأهجس بذاتي التي ارتدت أقنعة الهزيمة أمام من احتفظ بعزته وكرامته رغم قلة رزقه. أو أجدني أهجس بها ساقطة في بركة الذل، عاجزة عن إعانة نفسها، مخذولة، متنكرة لواقعي المرير، منسلخة عن القيم التي كان ينبغي أن أتشبث بها، وعن الواقع الذي كان يفترض أن أعيشه.

ذلك ما جعلني شريدًا في داخلي، شريد الذهن والفكر، شريد الحلم والتطلع. منزوٍ حتى عن انتمائي للبلدة التي أعيش فيها، تائهًا بين البيت والمدرسة، وبين اختيار زملائي وملاحقة أحلامي الكبيرة. أحيانًا كنت أقارن نفسي بالكلاب السائبة، فأجد فيها صديقة لي، وكأنني أمارس طقوسها في التشرد

والعناء، حيث لا أحد يهتم بي، ولا أحد يسأل عني. لا أعرف إلى أين أتجه، فلا لي أعمام ولا أخوال يحتوونني، وكنت أهجس بانكسار متعب، يشبه حال أمي الشريدة المنكسرة.

في إحدى المرات، قالت لي أمي إنها قبلت الزواج من أبي لأنها كانت شبه مجبرة، بسبب ضعف حال والدها، وأنها فضّلت الغربة على الفقر المرّ الذي كانت تعيشه في كنفه. لذلك، كان أبي يشعر بأنه صاحب فضل بزواجه منها، يهجس بها كجزء من ممتلكاته. وعندما وجد بديلة عنها، انتقم منها، وكأنه يردّ على قبولها به واختيارها له، فحوّلها من حاضنة للفقر إلى حاضنة للعقد والأغلال. تركها تغور في عيشة ضنكة، رغم ما يملك من ثروة، تلك التي ساهمت أمي في بنائها منذ بداية زواجهما، حين وقفت إلى جانبه في شبابه، تعينه على بلوغ ما وصل إليه من إمكانات وغنى. لكنه أنكر جهودها، وصبرها، وتحملها لجلد الظروف، ورماها كما تُرمى الكلاب، دون رحمة.

هكذا، حاصرتها الظروف القاسية، وبقيت مأسورة الحال، مكوية بالقهر، تتقلب بين شحٍ يطوّقها، وكرامةٍ تعتز بها وتتمسك بها. لا تستطيع العودة إلى ديار أبيها، وقد أصبحت أشبه بخرقة بالية، بعد أن أفنت شبابها وعزّها بين أحضان أبي، ولا تقدر على احتمال ذله وجوره، وهي منهكة بالمرض، مستنزفة الروح والجسد.

رغم شخصيته المترهلة، يراودني شعور بأنه يحمل جذورًا غامضة من التناقضات؛ ففي الوقت الذي يبدو فيه فطنًا على

نحو غريب في مجال العمل والتجارة، أراه غبيًا فظًا في الرعاية والعلاقات الاجتماعية، خصوصًا مع عائلته. يمتلك نظرة ثاقبة في جمع المال، ولولا ذلك لما كان أغنى أهل القرية قاطبة! ومع ذلك، لا يسعني إلا أن أراه رذيلًا، هفهافًا، مهملاً لنفسه ولمن حوله، منقادًا وراء غرائزه التي دفعته إلى سلوك سفيه، وضيع، وقاسٍ تجاهنا وتجاه عماله.

هذه الصفات والسلوكيات غير السوية نالت من قيمته في أعين من يعرفه عن قرب، لا سيما أسرته التي أهمل شؤونها قبل أن يلتقي بتلك الأفعى المسماة "فتنة" ويتزوجها، وكذلك في نظر عمال المزرعة الذين يمثلون شريحة واسعة من رجالات ونسوة القرية، كلٌ في مجاله.

منذ أن دخلت فتنة حياته، تفاقمت علاقتنا سوءًا وخسةً وقطيعةً؛ فلم يعد يطرق باب العشرة إلا نادرًا، وكأن وجودنا وعدمه باتا سواءً في نظره. كأنه فك السلسلة التي كانت تربطنا، فتبعثرت خرزات المودة في متاهات التيه والنسيان. أدركت حينها أن قلبه لم يعد يسعنا، ولم يعد يسعى للحفاظ على جدران الأسرة، بعد أن غرق في أهوائه وإهماله المتعمد لنا. وربما كان سلوكه هذا إرضاءً لفتنة، أو هروبًا من ذاته.

بصريح العبارة، أصبح ذكره في ذاكرتنا مشوبًا بالمهانة، لا نحسن تداوله في البيت، ولا نحسن التعامل معه. صرنا نتحسس من اسمه، نبغض حضوره، وبمجرد ذكره نشعر بالحكة وكأننا نُصاب بالأكزمة أو الجرب، نحاول جاهدين تفادي لقاءاته النادرة.

أما إزالة العقد وتحسين الأحوال، فقد غدت من أعقد الأمور في حياتنا، خارج حدود المنطق. الترفيه والاعتدال باتا أضغاث أحلام، يلفهما الغموض ويشل الذهن. الحالة بالنسبة لأمي هزيلة، تافهة، كفجوات الحياة التي لا تُردم بالنسيان. إصلاح الشأن صار ضربًا من المستحيل، لا يُتصور في ظل أنفاسه المريضة. وعندما نحتاج إلى وجوده، نهجس بأنفاسه تتسلل في أركان البيت كدخان حريق أسود، يعيق تنفسنا ويخنق أرواحنا.

منذ ذلك اليوم ونحن نعيش في تيهٍ يشبه تيه أصحاب السبت، نرتدي صداقة الفقر والفاقة كجلبابٍ مهترئ، تلك الصداقة التي جردتنا من مؤن الحياة، ومن ثقتنا بأنفسنا، ومن أحلامنا التي كنا نلاحقها وهي تنمو في دواخلنا كأبراجٍ شاهقة، ناطحاتٍ للسحب، تحجب عنا ضوء الشمس وتغرقنا في ظلال الخيبة.

في خضم تجرده وابتعاده، تعرفت على صديق العمر، إبراهيم. ذلك الشاب اللطيف، الذي بأطباعه الحسنة كان يطابق هوسي وطباعي حد التطابق، يكاد يكون نسخة مني في الطيبة والإباء. هو الوحيد الذي أستطيع أن أودعه أسراري، الوحيد الذي ترتاح له روحي، وأجد فيه ذاتي ويجد فيّ ذاته، حيث تطابقت أفكارنا وأهواؤنا كما تتطابق القطع في قالبٍ واحد، لا يزيد ولا ينقص.

ينحدر إبراهيم من أسرة فقيرة، لكنها متعففة، له أب عطوف ومثقف، لذا تجده يفهم في أمور الحياة ما لا يفهمه كثيرون. علمه أبوه التقوى، ورباه على أسسٍ قويمة، فكان ذلك ما

قربني منه حتى بتُّ لا أفارقه. هو الوحيد الذي وجدته آذانًا صاغية لتطلعاتي، لأفكاري التي كنت أحتضنها كأحلامٍ مشروعة، وبالذات حلم بناء مسرحٍ للترفيه، وإنشاء فرقةٍ مسرحية، ندعم بها الفنون التشكيلية، ونقيم معارض في شوارع القرية، لتزهو بالصور والتماثيل، وتتنفس الجمال بعد طول خنق.

كما أنه الوحيد الذي أيد فكرتي في إنشاء معملٍ لتحويل نثار الخشب إلى جلاتين يُجفف تحت حرارة الشمس، ليصبح جدرانًا صلبة واقية، تعوض عن الجدران الإسمنتية الثقيلة، لما فيها من جودةٍ في تحمل الحرارة والبرودة، ولخفة وزنها، وقلة تكاليفها، وسرعة البناء بها. كان يرى في الفكرة ثورةً على الجمود، وأنا كنت أراها خلاصًا من رتابة الواقع.

وحين اندمج بي، تفاجأ بشخصية والدي، كما تفاجأ بها معظم الناس المغشوشين بمظهره. كان يراه ولا يراه، يتحسس غناه من الخارج، ولا يلمس فقره من الداخل، يلمس قيافته ولا يلمس تفاهته، تلك التي طغت على شخصيته المهزوزة، ولطخت جدار العشرة بيننا بالبؤس والفوضى.

الناس كانت تطلق علينا أحكامها دون أن تعرف جوهر العلاقة التي تجمعنا، دون أن تلمس الحقيقة الغائبة عن أنظارهم، والمدفونة في أعماقنا. الكل مشوش، مغشوش بأبي، بسبب المظاهر وما يملك، لا بما هو عليه فعلاً.

وحين أسررت لإبراهيم بفكرة الهرب من القرية، غضب مني كثيرًا، بل أقسم أن يخبر أبي بما أنوي عليه. فعدلت عن الفكرة، وقلت له مازحًا، محاولًا التخفيف من وقعها:....

"لا تقلق، لن أهرب... على الأقل ليس قبل أن نُنشئ أول معرضٍ للفن التشكيلي في ساحة السوق، ونُعلّق أول لوحةٍ تُشبهنا، لا تُشبههم."

- يا أهبل، إنها مجرد فكرة راودتني، وددت أن أعرف ردت فعلك تجاهها لا أكثر.. ثم قل لي، أين أهرب بعمري الفتي هذا؟ لم أبلغ أشدي بعد، ولا أملك من المال ما يعينني على الهرب. الإفلاس يضرب جيبي، والظروف تحاصرني، وأنت أقرب الناس إليّ. حين أسرّ إليك، لا أطلب سوى ومضة من فكرك، علّني أجد ما يعينني على معضلتي. فأنت تعرف البئر وغطاءه، وتدرك وضعي جيدًا.
الهرب؟ ليس رغبة في الفرار، بل في بلوغ الأحلام التي تراودني، في تغيير معالم القرية، في تزيينها وتطوير مجالاتها. أنا مجرد فكرة تتدحرج بين هذه الوديان، أعوم في أمواج الحيرة، أبحث عن الحكمة والرجاء، أود أن أكسر جدار الروتين الذي شلّ تطلعاتنا.

حين هم بإخبار أبي بنيتي الهرب، كان بدواعي حرص واضح، لتعلقه بي ومحبة خالصة لا تُنكر. حين رآني أكيل له السب والشتم، نهاني. وحين استشطت غضبًا، راغبًا في

الانتقام منه لأجل أمي، رفض رفضًا قاطعًا أن تنحدر أفكاري لوهدة الجريمة. صار يرشدني، يعظني، يأنبني، وينهاني عن طاعة الفكرة الشيطانية التي تراودني، والتي لا تجلب سوى نتائج معكوسة.

في تلك الفترة، بقيت متعلقًا بكرامة أمي، لم أتزحزح عن خدمتها وتلبية احتياجاتها قدر المستطاع. لكن القسوة المفرطة المفروضة علينا دفعتني لمواجهة أبي، وملأت قلبي بالكراهية تجاهه. ورغم محاولاته لابتلاع شخصيتي، بإدماجي في جدول أعماله ومخططاته، لم يتمكن من جرفي بجرافته لمهاويه، ولا من جرّ قدري إلى مستنقع تطلعاته. أرادني آلة حرث، آلة جز، وسيلة لجني الأموال، بعيدًا عن كرسي الدراسة، لكنني بقيت صامدًا.

منذ أن كسر جرة ارتباطه بأمي بعد 18 سنة من الزواج، تراخت العلاقة بيننا. منحها مصيرًا أسودًا من الهجر والخذلان والقطيعة. ما أن هجرها، حتى طلقها، وما أن طلقها، حتى أهملها. تركها كالبومة بين جدران وحدتها، لا يشغل بالها سوى تربية أختي الصغيرة بثينة، في ظل عوز واضح للمادة. تركها في خربة من ملحقات مزرعة الأبقار، كالدواجن التي يربيها لولائمه.

-

رغم خزينه المادي، لم يغنه المال إطلاقًا. كان فقيرًا في كل شيء، حتى في أهوائه وغرائزه. لم تعره أية امرأة اهتمامًا

حقيقيًا، بل كنّ يتبعن زبد الأموال التي يغدقها عليهن. تلك المغريات والسلوكيات التي لم يسيطر عليها سرقته من حيثياته الأساسية، من إدارة شؤون العمل والبيت. سدّ عجزه النفسي بالأمور التافهة، وتناسى أولويات حياته.

قلّ اهتمامه بمزرعته، بنفسه، بهيئته. لم يحسن إدارة إنتاجها، رغم أنها مصدر عيشه الوحيد. لم يهتم بكادر العمل، الذين هم العمود الفقري لثروته. لم يمنحهم ثقته، رغم إخلاصهم وتفانيهم. لم يتصدق على فقير، ولم يبتسم لطفل. ترك في نفسي فجوات لا يمكن ردمها. ومع مرور الأيام، ومع كِبَري، اتسعت تلك الفجوات، حتى باتت حاجزًا معيقا لتقربي منه، ولو من باب التقوى.

كثرت "اللامات" في حياته: لم ولم ولم. تمسك بها، فسوغت حالته إلى وأده ونبذه، إلى مقتٍ في أذهان الجميع. ركنته في رقعة مهجورة وسط ضجيج لم يستطع إسكات صداه في أعماقه. دفعته إلى بؤرة شيطانية لا يئمها أحد، إلى صرة مثقوبة لا تملك من مقومات السعد شيئًا. فبان قصره كخربة مشيدة في طريق القوافل، لا يهتم بها أحد. هكذا أضحى دون أهمية في نظر الجميع.

لهيئته المعقدة، ووجهه العبوس، وطوله الناشز، وسلوكه الغريب، أشعر به رجلًا رزءًا، قرفًا لا يستحق الاحترام. كرشه الأهدل دلالة على تفاهة مخزونة في ذهنه. أراه وعاءً فارغًا، لا يحتوي سوى على الهم والقرف. أمثله أحيانًا كلوحة جرداء، تنقصها ألوان البهجة والفكرة. أجده صحراء، تنقصه

الثقافة والدين والسيرة والمعاملة. لا يفقه من الدنيا شيئًا سوى جمع المال واستلهام غرائزه... تلك هي صفاته التي جعلتني والناس ننفر منه، إلا من تلك المجاملات الكاذبة في مجال العمل.

3- جوان

نتيجة لبخل أبي وتقصيره في الإنفاق عليّ ماديًا وأدبيًا وتربويًا، بدأت أفكر في طرق غير مشروعة لجمع المال، فقط لأصل إلى غايتي البسيطة: شراء كتب الدراسة، أو الترفيه مع أقراني، أو اقتناء لعبة تسليني. كنت أمد يدي إلى خزانته دون علمه، حتى تزوج من امرأة غريبة الأطوار، ولم يمضِ وقت طويل حتى طردني من البيت بإشارة منها.

طلبت منه لاحقًا أن يشغلني في معمله لأعين والدتي ونفسي، فوافق، ولكن كعامل أجير، لا كابن صاحب العمل. كنت أعمل في دبغ الجلود، أنقلها على ظهري أو على ظهور الحمير إلى مصنع الألبسة في الجهة الأخرى من القرية. لم يكن هناك فرق بيني وبين باقي العمال، لا في الأجر ولا في المعاملة، وكأن مزرعة الأبقار ومصنع الألبان ليسا ملك أبي، أو كأنني غريب عن هذا الإرث.

كنت أتساءل في داخلي: هل كان يقصد إذلالي؟ أم أنه يرى في ذلك تربية؟ أم أنه يريدني أن أتعلم العمل لأكون عونًا له؟ وهل كان يثق بي أصلًا؟ وهل عومل هو بنفس الطريقة من قبل والده؟ لا أعلم، فجدي توفي قبل أن أولد.

لكن في قرارة نفسي، كنت أشعر أن معاملته لي لم تكن تربية، بل عقوبة. ربما كان يعاقبني لتعلقي بأمي، أو لأنه لم يكن متزنًا في سلوكه، ولا متعلمًا، ولا يحمل من صفات الرجولة

الرزينة ما يُفتخر به. لم يشغلني إلا بعد أن طلبت ذلك، خجلًا من الناس، لا رغبة في دعمي.

وفي أحد الأيام، حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، دخلت مكتبه بنيّة سرقة مبلغ صغير من درج مكتبه. وقبل أن أمد يدي، دخل هو، فاختبأت خلف الستارة الوحيدة في الغرفة. وبعد لحظات، دخلت إحدى العاملات، وكانت جميلة ومرحة، متزوجة من أحد العمال. كان أبي يستغل غياب زوجها ليختلي بها، أو بالأحرى كان يرسله لأماكن بعيدة عن القرية ليستفرد بزوجته في مشهد هزّ كياني، وأكد لي أن ما كنت أظنه تربية، لم يكن إلا عقوبة مغلفة بالقسوة والخذلان.

ما أن دخلت للغرفة حتى لفها بين ذراعيه، ثم سرق قبلة طويلة من شفاهها، ثم دلقها على الأريكة الإسفنجية، ثم صارت تخلع ملابسها وهو يخلع ملابسه وكأنهما في سباق مع الزمن. احتواها بين ذراعيه وساقيه، فأنبطح عليها كأنهما في حلبة مصارعة يتقلبان حول بعضهما البعض، ثم صار يرهز بها كالكلب الجامح، حينها سمعتها تقول له:..

- أحبك يا فرج، تزوجني وأفرجها عليَّ، أنا ممكن أن أطلق زوجي متى أشاء... ولكن بشرط أن توعدني وتتزوجني، لا أريد أن أطلقه وأبقى سلوة حديث الناس.

فيما هو يقول لها:..

- دعك من فكرة الزواج أنت عشيقتي، وكل ما تحتاجين إليه من مال أقدمه لك، لِمَ ندوش رؤوسنا بزواج لا طعم فيه ولا رائحة، أنت عشيقتي وحبيبتي الآن، وإذا ما تزوجتك سأركنك في البيت كأم سمير وفتنة وأبحث عن غيرك..

حينها استغليت الفرصة وهربت لأنهما لم يسرجا الباب، حينه كان لا يستطيع اللحاق بي وهو عري دون ثياب، بدا لي كالحيوانات السائبة كما خلقه ربه، وقبل أن أخرج من الغرفة قلت له:...

- يا خسيس يا قذر، تركتنا نشحت وأنت تزني وتصرف نقودك على العاهرات، طلقت أمي وتزوجت فتنه سأذكر لها كل ما رأيت وسمعت، كي تعرف أمي من هو زوجها الذي طلقها.

حينها خرجت هاربا واسمعه يسب ويغلط عليَّ بكلام تافه..

منذ ذلك اليوم، ساءت علاقته بي وبأمي حتى بلغت القطيعة التامة. بات يكرهني ويعاملني بقسوة مضاعفة، وأهمل أمي تمامًا، لا يراجعها ولا يسأل عنها. ولولا تهديدي له بكشف ما جرى بينه وبين جوان، لما رضي أن يصرف علينا شيئًا من فتات أرباحه.

كان يدفعني دفعًا إلى سلوك الاختلاس، لأجاري التغيرات التي طرأت على محيطي وظروفي، خاصة بعد أن كبرت واتسعت

تطلعاتي، وصرت أتوق إلى مواكبة ما يحظى به أقراني من تكنولوجيا ورفاهية. كنت أستغل المال في شراء كتب المطالعة، أو ألعاب بسيطة ككرة قدم أو مضرب تنس. أحيانًا أقتني ملابس جديدة أو هاتفًا خلويًا، وأحيانًا أدفعه لشيخٍ عجوزٍ في مسجد قريب يعلم الأولاد أصول الدين والقراءة والكتابة، فأندمج في حلقاته كتلميذ ورفيق، هربًا من الوحدة التي كانت تطبق عليّ.

وفي لحظات رقّة، كنت أتصدق بما أملك على بعض المساكين ممن لا يجدون لقمة العيش، أولئك الذين لا مصدر لهم سوى الصدقات. كانت عاطفتي تشدني إليهم، خاصة حين أجد نفسي وأمي في عوز دائم لأبسط ضروريات الحياة، رغم غنى أبي الفاحش. لكن الناس لا يرون سوى ظاهر الأمور، يحسدوننا على معيشتنا، دون أن يدركوا جوهر العلاقة المتصدعة بيننا، ولا يعرفون شيئًا عن الألم الذي نكابده خلف جدران البيت.

كما ذكرت، كان يجبرني على السرقة. أحيانًا من جيبه، وأحيانًا من درج الخزينة في المعمل، وأحيانًا من حاصل المنتوج، كأن أبيع عشرين قطعة من منتجات الألبان وأسجل خمس عشرة فقط، متلاعبًا بالأصناف والأرقام.

كل ذلك كان يجري في غفلة منه، ولو علم، لما تردد في تلقيني درسًا قاسيًا لا أحتمله. ربما يشد وثاقي، أو يسجنني داخل حدود مزرعته، وربما يجنّ عليّ ويزهق روحي، فمحبته للمادة ونزواته تفوق الوصف، وتجاوزت حدود العقل في كثير من الأحيان.

لم يكن يهتم بسلوكي، ولم أسمع منه يومًا كلمة رشد أو توجيه. لولا صديقي إبراهيم، الذي لازمني بمحبة ووفاء، لكنت قد انحرفت عن الطريق السوي، ووقعت في مهاوي الانحراف، كما وقع كثيرون ممن تاهوا في الشوارع والبارات، يلهثون خلف الحشيش والحبوب والكوكايين، ويغرقون في مستنقعات لا قرار لها.

لقد حاول كثير من المنحرفين جري إلى وهدة الموبقات، لكن إبراهيم، برجاحة عقله واهتمام والده به، كان لهم بالمرصاد. كان أكثر حنكة ووعيًا مني، أكثر دراية بخفايا الأمور، ينبهني إلى مكامن الخطر وانزلاقات النفوس. لذلك تمسكت به رفيقًا وصديقًا، بعد أن اكتشفت صفاء معدنه ونقاء سريرته. وقد أيقنت أن السعيد حقًا هو من يُرزق بصديق مثله. فالفرد لا بد أن يُحسن اختيار أصدقائه، كي تمضي الحياة سلسة، ويجد من يشاركه فهم مغزاها.

في إحدى المرات، أراد زياد، الملقب بـ "أبو كف" لضخامة جثته، أن يهين كرامتي ويجبرني على ممارسة الرذيلة معه. فعلى الرغم من قوة عضلاته ووسامته، إلا أنه كان شاذًا جنسيًا، يلاحقني مرارًا، محاولًا إقناعي بأفكاره المنحرفة، وإرغامي على الانصياع له بالقوة. لكنني كنت أهرب منه، مبغضًا سلوكه الوقح، مستندًا في قراري إلى إبراهيم، الذي أصبح جدار صد أحتمي به، فهو يكبرنا بسنة، لكنه كان أكثر نضجًا ووعيًا.

أمـا حميـد الأعـور، فكـان ينظـر إلـيّ بعـين الشـبق، يحـاول الاقتـراب منـي بأسـاليب ملتويـة، متـأملًا اغتصـابي. وقـد حـاول ذلـك ذات مـرة حـين كنـا نسـبح فـي نهـر دجلـة. كنـت أبتعـد عـن المجموعـة، أعـوم منفـردًا، هاربًـا مـن الـتلامس والفوضـى، ربمـا بسـبب الوحـدة التـي كنـت أعيشـها فـي البيـت. لكنـه كـان يقتـرب منـي دومًـا، يلصـق جسـده بجسـدي بحجـة مسـاعدتي علـى إتقـان السـباحة، مسـتغلًا ضـعفي، فقـد كنـت أعتمـد علـى إطـار عجلـة مطـاطي (الجـوب) لأتمكـن مـن العـوم. وكـان يكبرنـي بعشـر سـنوات أو أكثـر. عنـدها أخبـرت إبـراهيم بمـا يجـول فـي نيـة حميـد، وطلبـت منـه أن يسـبح قريبًـا منـي، ليـردع سـلوكه ويشـعره بالخجـل. وبالفعـل، قررنـا أن نرتـدي ملابسـنا ونغـادر المكـان، دون أن نكمل استمتاعنا بذلك اليوم الصيفي القائظ.

ولا أنكـر أننـي كنـت وسـيمًا، حتـى أن إسـراء، ابنـة مـدير شـرطة المدينة، اعترفت لي ذات يوم بوسامتي. قالت لي حينها.

- أنـت وسـيم يـا سـمير، عينـاك جميلتـان، واسـعتان، بشـرتك ذات سـمرة شـفيفة تسـتقطب النظـر معجونـة بالجاذبيـة، شـعرك لا يحتـاج سـوى للمسـة أصـابع أنثـى ليشـتعل بهجـة، لكنـك لازلـت صـغيرا لا تعـرف أصـول الحـب، ولا تعـرف أن تمـارس الحـب... كانـت تكبرنـي بعـدة سـنين، مـع أن الفتـاة تشـب اسـرع مـن الفتـى لاختلافات هرمونية.

لـم أفهـم يومًـا لمـاذا تفكـر الفتـاة فـي الحـب والـزواج قبـل أن تبلـغ، وقبـل أن يستشـعر الفتـى مـن أقرانهـا تلـك المشـاعر. لا شـك أن

الأمـر يـرتبط بالبنيـة الفسـيولوجية، فالفتيـات يـبلغن مبكـرًا، ويتـزوجن فـي سـن صـغيرة، ربمـا منـذ الثانيـة عشـرة، بينمـا يتـأخر الذكور عنهن بخمس سنوات تقريبًا حتى تنضج عاطفتهم.

كنـت حينهـا أعـيش خـارج لعبـة الحـب، لا تحركنـي فتـاة، ولا تسـتفزني نظـرة أو كلمـة. لـم تكـن أسـراء، ولا سـهاد، ولا نجـاة، ولا بثينـة، محـور تفكيـري. كنـت مشـغولًا بـأحلام الطفولـة التـي لـم أجـد لهـا مكانًـا فـي الواقـع، أحـلام كانـت خـارج تـأملاتي تمامًـا، كأنها تنتمي لعالم آخر لا يخصني.

أذكـر طرفـة قالهـا أحـد الأصـدقاء ذات يـوم، ضـاحكًا حيـث قال:....

"عنـدما كنـت طفـلًا، كنـت أعتقـد أن الـذكر يولـد مـن الرجـل، والأنثـى مـن المـرأة!" ثـم تـابع: "وعنـدما كبـرت قلـيلًا، ظننـت أن الله يرمـي الطفـل فـوق السـطح، فتصـعد أمـي لتجلبـه وتربيـه!" ضـحكنا كثيـرًا، كـم كنـا علـى سـجيتنا، بفطرتنـا، وبراءتنـا التـي لا تشوبها شائبة.

لكـن حيـاة الطفـل ليسـت دائمًـا ناعمـة، فهـي مليئـة بالمطبـات، وتلـك المطبـات ليسـت مـن اختصاصـه أن يتجاوزهـا، بـل مـن اختصـاص الوالـدين، وبالـذات الأب، لتـذليلها. أمـا أنـا، فقـد اسـتعنت بـإبراهيم ووالـده بطريقـة غيـر مباشـرة، عبـر سـلوك إبـراهيم القـويم. كنـت أقضـي معظـم وقتـي معـه، فـي المدرسـة، فـي البيـت، وفـي الشـارع. كـان متفهمًـا لواقعنـا، مـدركًا لعلاقتـي المنفلتة مع والدي.

راودتني فكرة الهرب من القرية مرارًا، لكن ما كان يمنعني هو عجزي المادي، ووضع أمي المسكينة، التي كانت تعيش وحدها، تفكر وحدها، تصارع الحياة بصمت. كنت بحاجة إلى رشد، إلى قوة تؤازرني، تضيف إلى تطلعاتي فكرة أستند إليها. لكنني لم أجد وسيلة أو سبيلًا يساعدني على تخطي حدود عجزي، ولم أجد مخرجًا يجعلني أبقى إلى جانب أمي دون أن أكون مكبلًا بوجود أبي، الذي كان سيفًا مسلطًا على رقابنا.

ثم إلى أين أهرب؟ ما زلت صبيًا، غض العود، لا أملك خبرة، ولا أملك تجارب تنتشلني من المخاطر. لم أُجازف يومًا لأدرك حدود المجازفة، ولم أتعلم كيف أعتمد على نفسي. لم أخرج يومًا عن نطاق قريتنا المحدودة، ولا أتقن أساليب الغش والنفاق والتلفيق التي قد يحتاجها المرء في لحظات تعقّد المعضلة.

ثم كيف لي أن أترك أمي، وحيدة الدار، تصارع الوحشة، والوحدة المقيتة، والمرض، في ظل ظلم أبٍ جائر؟ كيف أهرب منها، وهي التي لم تملك من الحياة سوى صبري ووجودي؟

كنت مضطربا فكريا، أود أن أغير شيئا من نمط سلوكي وطريقة معيشتي، حتى لو أطرق باب المستحيل كي أشعر بالتغيير. أو أن أحقق شيئا من ما كنت أحلم به، فالأحلام هي دافعي الوحيد على تمسكي بديمومة الحياة، والحقيقة هي لم تتوقف ولم تنقطع عن ذهني قط، دائما ما ترفدني بطاقة

التجديد، أشبه بخرير شلال يذكرني بوجود عالم آخر غير عالمي خارج نطاق قريتنا.

إن التطور لا يُنال بالتمني، بل بالحركة والسعي. كان عليّ أن أغيّر من نمط سلوكي لأقترب من الأهداف التي تشغل فكري، حتى تبلغ حدود التطبيق، وتمنحني لذة الاستمتاع بما تهواه النفس.

لكن تلك المعضلات التي أحاطت بي كبّلت أفكاري، وشلّت قدراتي، وجعلتني أعيش في صراع دائم مع حيرة متجددة، تتسلل إلى تفاصيل حياتي، وتشتت ذهني، بفعل عجزي المادي والبدني، إن صح التعبير. صرت أرشد ذاتي لما هو أحسن، على أمل أن أجد مخرجًا لوضعي المزري. حينها بدأت أطالع كتبًا علمية وصناعية، وأخرى عن المغامرات، أبحث فيها عن صيغة تنتشلني من هوسي، وتمنح قدري معنى يرتقي بي.

لفتتني مغامرات السندباد البحري، ذلك الرحّالة الذي جاب البلاد وعاد إلى بغداد محمّلًا بالذكريات والمعلومات والأحداث الشيقة. تأملت رحلته في الجزيرة المتحركة، ووادي الماس، ومقبرة الأفيال، وصراعه مع الغول الأسود، ومغامراته مع الوحوش والبحر والظروف القاسية، حتى خرج منها ظافرًا على سواحل أفريقيا الشرقية وجنوب شرق آسيا.

كما قرأت كتاب الأدغال، الذي ضم قصصًا عن ماوكلي، ذلك الشبل الذي أثار الذئاب في الغابة الهندية، وعن ريكي-تيكي-تافي، النمس البطل، وعن توماي والفيلة. كانت تلك القصص،

رغم خرافاتها، تمنحني دروسًا أخلاقية، وتفتح لي أبوابًا لفهم الذات، وتكشف لي قوانين شريعة الغاب التي تحكم المجتمعات المتخلفة.

صرت أفكر في مغامرة من نوع آخر، مغامرة تحقيق أحلامي التي ازدادت ألقًا وفتنة مع مرور السنوات. تكبلتُ بواقع القرية، وبأحكام أبي التي باتت تضايقني يومًا بعد يوم. سئمت الجمود، وغياب التطور، وغياب التلميع الفكري والذاتي. فقررت أن أتقبل المجازفة، وأخوض المغامرة، لأرتقي بذاتي إلى مصاف السندباد، وأحقق الأحلام الغافية في داخلي. فالأمور الكبيرة لا تأتي إلا بالمجازفة، أو المغامرة، أو التضحية.

كنت دائمًا أشعر أن ذاتي، رغم قصرها، قادرة على تحقيق أحلامي، والوصول إلى أهدافي، حتى وإن كان أبي يضطهدني. وبعد تفكير عميق، وإمعان في الذات، اتقدت شرارة الفكرة في ذهني، لاحت في أفق روحي في لحظة غفلة عابرة، جعلتني أتقد فرحًا وسرورًا. صرت ألاحقها كما يُلاحق القدر المصيبة، رغم خوفي ورعبي منها، لكن لا بد من المجازفة.

أصبحت ألتهم الفكرة المتدفقة في بوتقة الفكر، طائرًا في فضاء الرغبة، متأملًا النجاح من شدة الفرح. لا أحد يستطيع أن يلمس بهجتي، أو يخفف من نور الفكر الساطع في ذهني. حتى أن من يدقق النظر إليّ، يهجس بأنني أصبت بمسّ من

الفـزع أو الجنـون، لفرحـي وولعـي بـالفكرة الجديـدة التـي استلهمتها من كتب المجازفة والمغامرة.

بـتُّ أعـيش علـى وهـج الصـمت، فـي ذهـولٍ وإسـفافٍ كبيـرين، بفكـرٍ يسـبح خـارج نطـاق العقـل، حتـى بـات دخـان اليقـين يمـلأ فضـاء فكـري، يغطـي مسـاحة التأمـل والتقـدير، ويتجـاوز حـدود شـرودي وتخـوري فـي مجـالات المجازفـة والمغـامرة التـي طالمـا رغبـت أن أعـرف خصائصـها، وأحـوّل مسـوغاتها إلـى واقـع حـيٍّ في حياتي، وفي عيون من يهتمون بي.

ومـن خـلال تلـك الفكـرة، بـدأت أبصـر ملامـح مسـتقبلي بوضـوح، أرى أهـدافي شاخصـة أمـامي كناطحـات السـحب، ومضـة متلألئـة ترشـدني إليهـا، شـهاب يختـرق ظلمـة ليلـي، يصـعر قـدري، يزيـدني حيـرة وفطنـة فـي آنٍ واحـد، يجعلنـي أتحسـس الحلـم والأمان والمستقبل بأطراف أصابعي قبل أن ألمسها بذهني.

تلـك الفكـرة هجسـت بهـا، كأنهـا انبجسـت تحـت قـدمي كنَبـعٍ زلال، تـدفقت وانسـابت فـي جـداول ظنـي ويقينـي، بمسـارب متعـددة. كأنهـا كانـت مغشّـاة تحـت غبـرة الـزمن وسـلطان أبـي، ومـا إن أزحـت عنهـا تلـك الغبـرة المتجلـدة، ومـا إن تحـررت مـن قيـده، حتـى أنـبلج شـعاعها واضـحًا فـي نظـري. باتـت تلمـع كجـوهرة ثمينـة وسـط السـدم، متقـدة بسـحرها، تحثنـي علـى البحـث عنهـا، والتمسـك بمسـارها، تجبرنـي علـى أن أتبـع ومضـتها التـي تسـترت بالخيـال، وتـدفعني إرادتـي لأسـتتر بطرقهـا، عسـى أن أنتشل ذاتي بها.

لقد طرأت الفكرة واختمرت في ذهني على وهدة نار هادئة، على وقع مرونة الحال الذي كنت أعيشه. بدأت أتلمس ضوءها بذهني وقلبي، ثم بصبري وبصري، ثم ببصيرتي ويقيني. بهرجة ضياء تجمهرت فوق رأسي، بدت كبدرٍ تجلّى في دجى ليلي، صار يستثير أحلامي السادرة بضيائه، ويحفزها على التحرر والانطلاق.

ومن خلال تلك الفكرة، رسمت مخططًا أوليًا لمستقبلي، وضعت خطوط الطول والعرض، والنهايات العظمى والصغرى، والعريضة والدقيقة، كي لا أتردد أو أعود أدراجي. وما إن استلهمت الفكر، حتى اتخذت القرار الصائب، إذ أنارت لي الفكرة أفق النهايات التي يمكن أن أصل إليها بعزيمتي وسعيي الحثيثين. ومنذ أن انبلجت، شرعت بلملمة أشلائي المتناثرة في أرجاء الظن وصحارى الحيرة، لأضبها للحظة الشروع، وتنفيذ الخطة، والمضي في مساراتها.

منذ أن تلألأت الفكرة، صرت أزحف خلف مغرياتها ورجائها، حيث من خلال تطبيقها سأنقذ نفسي تمامًا من العقد الملتفة حول عنقي، سأحقق مرادي وغايتي وأحلامي. وربما يعيننني الظرف مستقبلًا على إنقاذ إبراهيم، وشلة الأصدقاء الطيبين، وأمي، وبثينة، من براثن الثعلب الماكر أبي، بنقلهم إلى واحة الحب والسلام التي أنشدها.

الفكرة التي التمعت في ذهني تتلخص في أن أصنع منطادًا من جلود البقر، ثم أنطلق به في فضاء الحرية، باحثًا عن صيغة

تحقق أهدافي في مكان بعيد عن سلطة أبي. أسافر إلى حيث الفضاء الغائر في أعماق المجهول، أتدحرج مع الريح، وأتنقل عبر البحار والجبال، في عالمٍ مجهولٍ سيرتاده قدري، وعسى أن أصل من خلال سعيي إلى حدود مآربي ومحيط غاياتي، قبل أن تشيخ أحلامي وتتفتت أهدافي، في الوقت الذي أكون فيه قد هربت من قيد أبي وسلطانه.

ومهما كان هذا المجهول قاسيًا وبعيدًا، فلن يكون أشد قسوة وبعدًا من طابع أبي وبخله. بذلك أكون قد امتلكت الحرية والقرار، بعيدًا عن ظلمٍ مستبد، وسأترك مصير المنطاد لمركب الريح، يجري بأمر الله إلى مستقر له، وعسى أن أجد ما ينقصني في بقاع الأرض الواسعة.

ألم يقل الله ﷻ في كتابه الكريم، إذا ضاقت بكم السبل فاسعوا في مناكب الأرض؟ "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولًا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور." صدق الله العظيم.

كي تتجدد الحياة وتنبض بالحيوية، لا بد من كسر قيود الروتين، والانطلاق نحو فضاءات جديدة. فالحركة هي روح الحياة، وهي تبدأ من فكرة، والفكرة لا تولد مكتملة، بل تحتاج إلى تغذية بالعزيمة، والإصرار، والتبصر. ومع تغذية الفكر، تتبلور متطلبات الفكرة، فتترسخ جذورها، وتتسع سطورها، وتنتشر بذورها في الجسد والوجدان.

الفكرة تمنح الحياة صيغة جديدة، رأيتها في خاطري كالمطر حين يغسل وجه الأشجار من غبار الأيام، فيتجدد رونقها

وتستعيد حيويتها. إنها الخطوة الأولى نحو حياة أكثر مرونة وطيبة، حياة أكون فيها أكثر اقتناعًا، أكثر شاعرية وألفة، أكثر بهجة وسعادة من واقعي الحالي الذي يثقلني.

كل شيء يبدأ من فكرة صغيرة، ثم تنمو لتصبح مشروعًا متكاملًا. فالعجلة بدأت بفكرة التدحرج، ثم تحولت إلى عربة، ثم أضيف إليها محرك، فأصبحت سيارة أو قطارًا... وهكذا تتطور الأحلام حين تجد من يرعاها.

وحين وجدت الخطوة الحكيمة التي أستند إليها، أدركت أن عليّ أن أحيطها بالتحدي والجرأة. فالفكرة تحتاج إلى تخطيط، وصبر، وطول بال، وفكر متقد، كما تحتاج إلى السرية والدهاء. فالسر إن أفشي، مات الحلم في مهده. كما يقول المثل: "إذا أفشيت سرك، كأنك جعلت من يعرفه يصوب سهمه نحوك."

لذلك أخفيت الفكرة عن أقرب الناس إليّ، كأمي وصديقي إبراهيم. ورغم أنني لمحت لهما من خلال نشوتي وفرحي غير المعتاد، إلا أنني اكتفيت بالقول: "أحتفظ بمفاجأة سارة لي، وربما تكون سارة لغيري أيضًا." حاول إبراهيم أن يفك اللغز، لكنني قلت له: "أحتفظ بها لك كمفاجأة، وإلا ستفقد بريقها إن كشفتها الآن."

الحقيقة أنني خشيت أن يخبر أبي بتفاصيل الفكرة، فيجهز على أحلامي التي أرهقتني. فرغم ثقتي الكبيرة بإبراهيم، إلا أنه لا

يقوى على فراقي، وكنت متأكدًا أنه سيمنعني بطريقة أو بأخرى، حتى لو اضطر إلى الخصام أو استخدام القوة.

لذا، بقيت في وحدتي أصون الفكرة، وأشرع في تنفيذها قبل أن تصبح واقعًا. بدأت أقرأ الكتب بحثًا عن أسرار المنطاد، والمواد التي قد أحتاجها في بناء المشروع، وما يمكنني أخذه معي حين يحين موعد الطيران. كنت أسجل كل شيء على الورق وفي ذاكرتي، استعدادًا للحظة الرحيل، حين يبدأ القدر مشواره الجديد معي.

"الفكرة هي بذرة الحياة الجديدة، لكنها لا تنمو إلا في تربة من الصبر، والسرية، والجرأة. لا تفرط في كشفها قبل أن تشتد عودها، فالأحلام الهشة لا تحتمل الرياح المبكرة"

4- تنفيذ الفكرة

كل تلك الصفات التي يحلم بها الإنسان كانت كامنة في داخلي: روحي المرنة، عقليتي المتفتحة، ووجهي السمح. أحيانًا، حين أنظر إلى نفسي، أشعر بشيء من الغبطة، كأنني أحسد ذاتي على ما أملك من مقومات نادرة. وفي المقابل، كنت أمتعض من أبي، أنظر إليه بتصغير، وأحسبه من أشد الناس غباءً، لأنه لم يدرك يومًا ما وهبني الله من صفات، ولم يفكر في استثمارها، بل ظل غارقًا في حساباته ومدخراته.

بدأت أخطط بعيدًا عن أعين الجميع، بسرية تامة، وأنا مطمئن إلى أن عمال أبي لن يكونوا عونًا له ضدي. علاقتي بهم كانت سلسة، على عكس أبي المتزمت في سلوكه وقراراته، الذين يبغضونه ويحنقون عليه حتى الكره. لذلك، حتى لو رآني أحدهم أتصرف خارج المألوف، فلن ينبس ببنت شفة. سيحتفظ بالسر، كما لو أنه جزء من المؤامرة التي نسجتها وحدي.

استغليت تلك المحبة، وتسللت من خلالها إلى تنفيذ فكرتي، متجاوزًا عقدتها، مطبقًا سُننها على مهل،

بانفراديـة مطلقـة، وكـأنني أعـيش فـي عـالم غريـب، ملـيء بـالهوس الـذي اجتـاح فكـري. عملـي فـي قسـم الجلـود كـان الشـرارة الأولـى الـذي فـتح لـي افـاق الفكـرة، حيـث وجـدت فيــه أرضًــا خصــبة للهــروب مــن عــالمي، والإبحــار فــي جــوف المســتحيل، بحثًــا عــن أحلامــي التــي أُســدل عليهــا الســتار فــي قريتي، بفعل أبي.

الوحـدة التـي كنـت أعيشـها، والقـرف الـذي قيـدني بـه، والحالـة المزريـة التـي كانـت عليهـا والـدتي، كلهـا عوامـل أنضـجت الفكـرة فـي داخلـي، ومنحتنـي ثقـة تدريجيـة بتجـاوز العقـد. كنـت أشـعر أن شخصـيتي لا وجـود لهـا، وهـذا مـا كـان يحـزّ فـي نفسـي. كنـت أبحـث عـن ذاتـي، عـن قيمـة الحقيقيـة بـين صـفحات الأيـام، حتـى وجدتني أنتفض على الواقع المزري الذي أعيشه.

كنـت أبحـث عـن ذلـك الخـيط الرفيـع الـذي يقـودني إلـى حالـة مـن التجـرد والانفـراد، بعيـدًا عـن المجتمـع، لأصـنع مـن ذاتـي ذاتًـا أخـرى تكـون سـندًا لـي. ذلـك التحـدي الـذي كنـت أبحـث عنـه فـي خفايـا الـنفس، هـو مـا منحنـي الثقـة، وجردنـي مـن كـل مغريـات الدنيا التي لو تمسكت بها، لما استطعت أن أذلل عقدة أبي.

كنـت أهجـس بالشخصـية، أراهـا جـوهر الإنسـان، وأرى الفـرد بـلا شخصـية كالشـجرة بـلا أوراق، لا تـروق ولا تُـبهج. هـذا مـا منعنـي مــن الاستســلام لأي كــائن، ولــم أحتمــل فكــرة أن أكــون صــورة مكـررة لأبـي فـي عيـون النـاس. لـذلك، كنـت أبحـث عـن نفسـي فـي عيونه وعيونهم بصيغة أفكاري، لا بصيغة ملامحي.

كان الحافز يصطدم بي، يهيننني كلما خالفت أبي، لأنه أرادني نسخة منه، بعيوبه وعجرفته، لم يفكر إلا في جمع المال. أما أنا، فكنت أفكر في إضفاء بهجة على روح القرية، على أنفاس ناسها، وأن يُدوّن اسمي في ذاكرة المجتمع، لا في دفاتر الحسابات.

كل تلك الأحداث أيقظت في داخلي شرارة الحلم، فاندفعت ألاحق خيوطه المتشابكة، عاقدًا العزم على بناء صرح فكري خاص، والانزواء تحت راية فكرة تلألأت في ذهني، باحثًا عن المجهول الذي يختبئ خلف حاجز القرية وجنانها المترامية.

خلال عملي في قسم الدباغة، وعلى مدى شهرين متواصلين، تمكنت من سرقة عشرة جلود نظيفة، خبأتها في مكان ناءٍ بعيد عن التوقع والأنظار. الحسابات كانت تتيه على العاملين لكثرة الأبقار وتدفق الأموال، ناهيك عن أنني ابن صاحب العمل الوحيد، لذا لا أحد يتبع أثري أو يساوره شك في غايتي، ولم ينبس أحد ببنت شفة، فنجوت من الحساب دون عناء.

كنت أعمل حتى ساعات متأخرة من المساء، أو أتحجج بالتنظيف والعناية، فأبقى حتى غروب الشمس. وما إن تسنح لي الفرصة، أخبئ الجلود ثم أنقلها إلى مخبأ سري بكل حذر. الحراس كانوا مطمئنين تمامًا من ناحيتي، بل يتوددون إليّ طمعًا في رضا والدي الذي يغدق عليهم بالدراهم، أملاً في استمرارهم بالحراسة.

جمعت بعض المال مما كان يقتره عليّ أبي، وأخرى سرقتها من جراره الخاص، بالإضافة إلى أجرتي من عملي في قسم الجلود. كان لابد من شراء مستلزمات المنطاد: حبال، خيوط، أسطوانة غاز، صندوق خشبي، وغيرها. كما جهزت مؤونة الرحلة من طعام وشراب، وفرشة تقي جسدي برد الطبقات العليا من الجو.

أخفيت كل المستلزمات بعيدًا عن أعين أهل القرية، ودفنتها تحت أدغال الحشائش وظلال الأشجار الباسقة في الطرف الشمالي، بعيدًا عن أنظار النمامين والقثاثين والواشين، أولئك الذين يجيشون في الأرض كالحشرات، ينقلون الأخبار ويضخمون الأحداث مقابل فتات المال.

كنت أجنح إلى ذلك المكان تحت جنح الظلام، أعمل وحيدًا في هزيع الليل، في دماسة الصمت والبرد، والذي اعتبرته غطاءً حقيقيًا لي. رغم الوحشة، لم أملّ، ولم أكلّ، بل واصلت العمل الدؤوب، باذلًا أقصى جهدي لأصل إلى غايتي في الوقت المناسب.

أحيانا أختفي خلف الأحراش مغطيا ذاتي بالجلود حين تفزعني أصوات الذئاب الموحشة وخاصة حين تدخل حدود القرية، حيث يقولون للذئب عين الصقر ونفس الثعبان، يستطيع أن يكتشف فريسته عن بعد مئات الأمتار، لذلك كنت أختفي تحت الجلود كاتما انفاسي، بالكاد أسمع غطيط زفيري وشهيقي من شدة الخوف والسكون.

كـان الهـدوء يطغـي علـى الأجـواء، إلا مـن عـواء ذئـاب بعيـدة نوعـا مـا، يقابلهـا نبـاح كـلاب متأهبـة لملاقاتهـا، فكانـت نفسـي تضيع بين تلك الأصوات في عالمها المتناءي.

مـا إن يهـدأ رعيـي وتنطفـئ ضوضـاء النهـار، أشـرع بخياطـة الجلـود، أرقّـع الجلـد بالجلـد مستخدمًا خيوطًـا مـن النـايلون، كتلـك التـي تُستعمل فـي صـيد الأسـماك. أرتّـب أجـزاء هيكـل المنطـاد، وأربـط الحبـال مـن نقطـة المركـز نحـو الأطـراف، مـارًا بحلقـات الجـزء الخـارجي كـي لا تنفلـت الجلـود بفعـل ضـغط الهـواء السـاخن الـذي سـيملأها لاحقًـا. شـكّلت الهيكـل علـى هيئـة طاقيـة ضـخمة بفوهـة صـغيرة، تنتهـي بعقـدة مركزيـة فـي الأعلـى. كنـت أغشـي ثُلـم الإبـر بمـادة صـمغية جيلاتينيـة تـذوب مـع الجلـد، لأضمن متانة العقد وثبات الخيوط.

خـلال عملـي، لـم يكـن يرعبنـي سـوى الثعـابين التـي تتخـذ مـن الأدغـال مـأوى لهـا، تختبـئ تحـت الحشـائش أو تتـوارى فـي الظـلال، متربصـة بفرائسـها. وقـد تجـد دفئًـا تحـت الجلـود، لكـن مـا كـان يطمئننـي هـو بـرودة الليـل، فالثعـابين مـن ذوات الـدم البـارد، والبرد يجمد دماءها ويعيق حركتها.

تحملـت مشـاق الليـل ومفاجآتـه، لـم أعبـأ بـالخوف، ولـم أُعـر أهميـة لأي طـارئ قـد يصـادفني. وضـعت هـدفي نصـب عينـي، وكـان علـيّ أن أبلـغ غـايتي مهمـا تعسـرت الطريـق. كنـت أردد لنفسـي شـعارًا يبعـث فـيّ العـزم: "فـإذا عزمـت فتوكـل علـى الله"، أشـحذ ذاتـي بهـذه الآيـة، وأمضـي دون أن ألتفـت للخلـف، رغـم مشـاعر

الحنين التي كثيرًا ما كانت تصطف إلى جانب والدتي، تلك التي أكنّ لها كل حب واحترام.

وعلى مدى شهر من العمل الجاد، استتبت الأمور تمامًا. بات كل شيء جاهزًا كما أردت: اكتمل بناء المنطاد، وجهزت ملحقاته من مأكل وأدوات ديمومة، واشتريت ملابس تتحمل الظروف القاسية - بنطال جينز، أحذية جلدية، ملابس داخلية مطاطية كتلك التي يرتديها رواد الفضاء، ومعطف جلدي يقي البرد.

وقبل أن أشرع في الرحيل، كان لا بد من وداع أمي وصديقي إبراهيم. كنت قد شرحت لأمي كل شيء، أخبرتها بنيّتي في الرحيل بحثًا عن مكان أكثر بهجة وأمانًا ورزقًا، بعيدًا عن الغل الذي يغمرنا به أبي. أردت أن نضع أصفاد القهر التي كبّلنا بها حول عنقه وساقيه، ليشعر بثقلها في نفسه. طالما اعتبرنا جزءًا من ممتلكاته، علينا أن ننصاع لأوامره دون نقاش. لم يكن يهتم بنا، منشغلًا بفتنته، مغترًا بمكانته وكبريائه، يزداد ظلمًا وقسوة كلما توهم أنه يملكنا.

وما إن نفلت من قبضته، سيشعر بالفراغ الذي نتركه، وسيفتقد بهرجته في أعين الآخرين، وفي عينه هو حين يفتقد وجودنا. سيخسر كل شيء، وربما لن تعيد له أمواله قدره، وقد لا تدوم بين يديه.

وما إن سمعت أمي بالأمر، حتى انسحبت إلى نفسها وبدأت تذرف دموعًا حارقة، تبكي بحرقة على فراقي، رغم أنها

كانت تدرك تطلعاتي وتتفهم دوافع رحيلي. راحت ترفع يديها إلى السماء، تدعو لي بالتوفيق، فالأم قلبها ممغنط بنغمة الود والحنين، مصنوع من مطاط حساس، يتأثر بالكلمة والموقف، ويحتوي كل منغصات الابن وعبثه ونزاعاته وطفولته وكرامته. قلبٌ يتسع لكل ما يفرزه من سوء وقرف وأذى وإثم وجنح وخطيئة وذنب ورذيلة وضرر. تتمنى له الطهارة والعظمة والعفة والفائدة والفضيلة، تحاول أن ترضيه بكل ما تملك من قابلية، فقط ليحيا سعيدًا.

وبينما كانت تبكي، دخل علينا إبراهيم مستفسرًا عن سبب بكاء الوالدة. فقلت له: "هيا بنا، سأريك المفاجأة التي وعدتك بها، تلك التي لطالما سألتني عنها." قدته إلى مكان إخفاء المنطاد، وحين رآه، بهت من عبقريتي وأفكاري المجنونة، ومن تقنية عملي وحجم قدراتي. عرضت عليه مرافقتي في الرحلة، وقلت له: "ربما لن نستطيع العودة." لكنه رفض، لم يرضَ بفراقي ولا بالشروع في مغامرة غير محسوبة.

طلبت منه كتمان السر، وكلفته بمراعاة أمي في غيابي، لكنه استشاط غضبًا، وحاول تمزيق المنطاد. تشاجرنا، علت أصواتنا، ومنعته من لمسه. وبعد شد وجذب وملاواة، طرحتُه أرضًا، حتى تمرغت ثيابنا بالتراب والوحل. تركني حينها، والغضب يشتعل في عينيه، وعرفت أنه لن يصبر على فراقي، وتيقنت أنه سيخبر والدي بنيتي.

كنت قد بلغت الثامنة عشرة من عمري، أي أنني أصبحت قادرًا على الاعتماد على نفسي بعد أن نضجت. وما إن غادر

وهـو حـزين مكفهـر الوجـه، يمتمـت بكلمـات غاضـبة، واختفـى عـن نـاظري بـين الأحـراش، حتـى بـدأت أجهـز المنطـاد لحالـة التأهـب والانطـلاق. وضـبت كـل مسـتلزمات الرحلـة: مأكـل، فرش، دواء، غاز، وعلبة كبريت، استعدادًا لليلة الرحيل.

كـان مشـوار إبـراهيم إلـى القريـة يسـتغرق قرابـة سـاعة ذهابًـا وإيابًـا، وتيقنـت أنـه سـيخبر أبـي بكـل شـيء، ولـن يتركنـي علـى سـجيتي. وحتمـاً سـيعود ومعـه أبـي. لكننـي كنـت واثقًـا أنـه حـين يعـودان، سـيكون المنطـاد قـد أصـبح جـاهزًا للإقـلاع، وسـأكون قـد أنهيت كل شيء بيسر.

5- تاريخ انطلاق الرحلة 7/ شباط/ 1986

في اللحظة التي أشهرت فيها النار في جوف المنطاد استعدادًا للانطلاق، وفي تلك اللحظة الحرجة الفاصلة، بان أبي عن بعد وهو يمتطي فرسه الشهباء، قادمًا من جوف القرية، تتقد في داخله حيرة صماء تشتعل كالجمر وهو يتجه نحوي بسرعة خاطفة، ومن خلفه يحتضنه شخص آخر، ومع اقترابه تبين لي أنه إبراهيم.

كان وجهه مقتضبًا، تعلوه علامات الحرد والغضب، أنفاسه تهجس نارًا كحزمة حطب مشتعلة، قسماته الحانقة تنطق بحجم الحيرة والتعجب والانبهار، فقد باغتته المفاجأة كما باغتت فكر إبراهيم. كان يندفع نحوي بجنون، يطير بفرسه من فرط السرعة، يحاول أن يدركني قبل أن أفلت من قبضته.

وقبل أن يصل إلي بأمتار قليلة، وقبل أن يحقق مبتغاه، كان المنطاد قد ارتفع في الهواء، بلغ ارتفاع عشرة أمتار، مبتعدًا عنه وعن مآربه. حينها شعرت وكأنني قد أجهزت على كبريائه بعبقريتي، وكأن سهم الانتقام قد انطلق من فكري إلى صدره، وكأنني فقأت عينيه وسحقت عجرفته. لقد ارتفع المنطاد إلى مسافة تحجزني عنه، مسافة لا يمكنه أن يتجاوزها.

استقام المنطاد في اللحظة التي أشرف فيها أبي على المكان، وبدأ يرتفع رويدًا رويدًا، مع عصف الريح الذي بات يقترب

منـي. ومـا إن بلـغ أبـي المكـان، حتـى أصـبحت المسـافة بـين سـوطه وجسـدي كافيـة لتقيـد سـلطته. شـعرت حينهـا أننـي قـد جردتـه مـن جبروتـه، منحـت نفسـي حريـة الحيـاة التـي طالمـا عقد أمورهـا، وجعلهـا رهينـة ذاتـه المريضـة، أكثـر ممـا قـدّرها أو أرضى فتنتها.

وأنـا أبتعـد عـن ظلـه وكبريائـه وعنجهيتـه، بـدأ يصـرخ بـي كعادتـه، موبخًـا، مناديًـا بصـوته الغاضـب الـذي اعتـدت أن يلاقينـي بـه. وحـين رأى أننـي لا أعيـره اهتمامًـا، بـدأ يركـع لإرادتـي بصـيغة المتوسـل، يتوسـل بكـل الكلمـات اللطيفـة والمذلـة، واعـدًا بتنفيـذ مـآربي إن عـدت لرشـدي. لقـد لمـس ردة فعلـي العمليـة علـى سـلوكه المتعجـرف، تلـك التـي لـم يكـن يتوقعهـا منـي أبـدًا. لـم يخطـر ببالـه أن تكـون ضـربتي موجعـة بهـذا القـدر، ضـربة فـي الصـميم، ردًا علـى عنجهيتـه وإهمالـه لـي ولوالـدتي، تلـك التـي ذاقت علـى يديـه أقسـى أنـواع العـذاب، حتـى بلغـت حـدها عبر سنين عجاف.

صار يردد قائلاً:...

- مـاذا تفعـل أيهـا المجنـون القـذر، هيـا أهـبط، أنـزل، أتـرك أفكـارك وجنونـك واصـغي الـيَّ سـأفعل مـا تطلبـه منـي، إلـى أيـن أنـت ذاهـب؟ لـن تجـد فـي مسـعاك سـوى المـوت. عد وسأتكفل بكل رغباتك..
- وداعـا يـا أبـي، جنـوني الـذي كنـت تسـتهزأ بـه أنقـذني مـن ظلمـك، لقـد ظلمتنـي كثيـرا مثلمـا ظلمـت أمـي مـن أجـل فتنـه التـي سـرقتك وسـرقت جيبـك. ظلمـك لـن يـدوم، قلتهـا

لك مرارا في السابق، لكنك لم تصغِ إليَّ، ولم تراعي موهبتي، ولم تصدق أفكاري ولم تصلح نفسك، لقد قسوت كثيرا، دع أملاكك تنفعك! خلال عمري المنصرم لم أستشعر بأبوتك وحنانك على الرغم من أني أبنك الوحيد.
وأنت يا إبراهيم سامحني، أحبك كثيرا، انت صديقي ستبقى بالذكرة، تمنيتك أن تكون برفقتي، ولكن هذا هو قدري، حتما سأشتاق لك ولأمي وأختي، وأكيد سألتقي بك يوما ما، سأبقى وفيا لصداقتنا، وداعا يا أبراهيم، ارجوك ان تعتني بأمي وأختي بثينة، أن تراجعهم وترى طلباتهم....

- عد يا سمير، يا صديقي العزيز، لا تتهور، ستتركني وحيدا في القرية وأنت تدرك معزتك عندي، أرجوك عد، أمك وأختك بحاجة لوجودك قربهم.

قال ذلك إبراهم والدمع يترقرق في عينيه..

- سأعود يوما ما من أجلك ومن أجل أمي... وداعا

كنت أرتفع في فضاء ذلك اليوم المشمس من شباط البارد عام 1986، أستمع لندائهما يتلاشى خلفي، فيما تتكور داخلي حالة مبهمة، هلامية، تفصلني عنهما وتنفصل عن جذورها. بدت كولادة جديدة تطفح في عرفي، تتشكل من إصرار يفور في أعماقي، كأن ضوءًا مستشيطًا شعّ في صدري، أوقظ مشاعر لا إرادية، جددت الحياة بصيغ غير مألوفة.

كنت أتلّمس ضفائر الغد من ناظور فكري، وأدرك أنني في حالة انسلاخ تام عن الأصل، عن القرية، عن أبي. شعلة اتقاد تتوهج في داخلي، فيها صيرورة وديمومة لم أعرفها من قبل. لم أجدها في ظل حياة أبي، ولا في ظلال القرية التي لم تمنحني سوى الخنوع.

منتشيًا بنجاح منطادي في تجريدي من قيد الأب، راقبته من الأعلى، وقد تحجم بانفعالاته، تحول إلى رجل شبه مجنون، عاجز عن الفعل، لا حلول لديه ولا قوة تعينه على الظفر. عبثا حاول إنزال منطادي، لم تعنه أفكاره، ولم تسعفه حيلته. أدرك أنني أفلت من قبضته، وأنه لن يضعني تحت إرادته بعد الآن.

لأول مرة، أهجس به دون إرادة، دون جبروت، دون قابلية للتحكم. رأيته مكسورًا أمام جنوني، مستسلمًا لإصراري على التحرر، عاجزًا عن استعادة سلطته. لوّحت لهما مودعًا، غير آسف على وداع أبي.

كان المنطاد قد ارتفع عاليًا، تخطى حاجز المناداة والمحاورة، مضى بسرعة رهيبة، قطع أمل أبي في تغيير الوضع، وفي أي محاولة جنونية لإنزاله. الحمد لله لم تكن بندقيته معه، وإلا لما توانى عن إصابتي، دون أن يدرك حجم المفاجأة التي أعددتها له وخبأتها.

انطلق المنطاد كما توقعت، كما هاجسَت روحي، ارتفع على حسب أهوائي، وكأن النار المضرمة في جوفه تحولت إلى بركان لهب، يندفع بطاقة تشبه إرهاصات فكري. بانتشالي من

قبضته، شعرت أنني كسرت طوق اليأس والخنوع، وصقلتها إرادتي.

لم يستطع إقناعي بالعودة إلى عالمه المريض ودائرته الموبوءة. كنت قد اتخذت قراري بإصرار، بعد يأسٍ من محاولة إصلاح شأنه وشأني في ظل وجوده. كان قراري صائبًا، لا رجعة فيه؛ نتيجة تراكمات من السخط والقرف والعجرفة التي نخرت حياتي، وعرقلت سعيي، وعلقت كأتربة هموم ثقيلة في عنقي، حتى أرهقتني نفسيًا وبدنيًا.

أضحت المسافة بيني وبينه شاسعة. غدت القرية تهرب عن الحدق، كطيف حلم يخبو في دماسة الشك. بدأت صورها تتراجع باتجاه التلاشي، وصارت الأشياء تصغر في نظري، شيئًا فشيئًا، حتى انزوت خلف المدى. صار أبي، بمعطفه الأسود، كنقطة سوداء في باطن القرية، كالصفر لا أهمية له.

كنت أنظر إليه وأنا أنسلّ من قبضة يده، وكأني أنظر إلى شاخصٍ جامدٍ لا تأثير له على محيطه. بل إن بعض الجماد له هاجس قوي يجبرك على الوقوف أمامه لعظمته. هجست أنني كسرت هيبته، وبترت قامته، وأضحى عاجزًا عن مواجهتي وملاواة ذراعي. تلك العنجهية التي اتصف بها تفتت أمام قراري كنثار الخشب، بل هجست أن كيانه تلاشى أمام عزمي كضباب تلاشى وسط ريح.

لم يكن يتوقع قط أن أخرج عن طوعه، أو أن أكسر عود هيبته، أو أن أنهي علاقتي به بهذه الشاكلة المذلة. رغم أنني،

خلال مشاجراتي معه، كنت أحذره مما يجول في خاطري وخاطره، وأحذره من انعكاسات سلوكي وتصرفاتي تجاهه، إلا أنه لم يأخذ تحذيراتي على محمل الجد. لم ترتقِ حالته الفكرية إلى ما تسعى له إرادتي، تلك الإرادة التي كانت تتحدى عنجهيته.

كنت أدرك أنه لن يحتمل عصف إرادتي وردة فعلي، ولن يحتمل وقع جنوني وفتن أفكاري. وقد يصاب، بعد فراري، بجلطة تسقطه. رغم أنه لم يعِرني أهمية خلال وجودي في القرية، إلا أنه لم يعتد أن يتجاوزه أحد في شخصه وفكره وإرادته. دائمًا ما كان يستصغرني، ويستهزئ بي، ولم ولن يتوقع أن تجرني أفكاري إلى ما جرتني إليه، أن أتحداه وهو في قمة قهره وقوته.

حينها، عرف حجم القساوة التي كان يبديها ضدي، وحجم البغض الذي يكنه في قلبه عليّ. بقي متسمّرًا في مكانه كأي قطعة حجر دون إرادة، وهو ينظر إلى المنطاد يرتفع فوق رأسه. ربما افتخر بعبقريتي مع نفسه، ولكن كبرياءه يمنعه من التصريح بالحقيقة. كنت أنظر إليه، ومع مرور اللحظات العابرة، يزداد صغرًا حجمًا وكيانًا، حتى تكوّر وتقوقع في مكانه بوضعه الصحيح: صغيرًا، تافهًا، كنقطة لا تساوي شيئًا.

وجدته مكبّل اليدين والساقين، لا يستطيع أن يفعل حيال ذكائي وفعلي شيئًا يجبرني على العودة. حتى أنني هجست أن قدره تراجع أمام ذاته كثيرًا، تراجع لما تحت الصفر، صار ضمن الأعداد السالبة، صار مطلوبًا أمام ذاته وضميره والمجتمع

لعدم قدرته على تربيتي واحتضاني بما يلزمه من واجب الأبوة. ذلك لأنه نسي ذاته، وتمسك بكبريائه وعجرفته، حتى جعله ذلك يلمس حقيقة قدره، على الأقل من وجهة نظري.

بدأت أنظر إلى القرية بشيء من الغرابة والإعجاب. لم أتوقع أن أراها بهذا الشكل، وبهذه الصورة من الأعلى، لم يكن في الحسبان إطلاقًا. ما أبهرني فيها هو تحرك البشر في أخاديدها كدبيب النمل في مملكته. تلك الأخاديد لم تكن سوى الشوارع والأزقة الضيقة، التي تشابكت وتداخلت كخطوطٍ ترسم خارطة القرية ومحيطها. ورغم أنها قرية، إلا أنها بدت واسعة بحجم مدينة، لما تحتويه من مرافق ترفيهية تبهج النفس وتنعش الروح. كانت غابات الأشجار الشمالية بظلالها تغطي تلك الأخاديد والسهول، بلونٍ يزداد دكنة مع صفرة رمال الصحراء المحيطة بجنوب القرية، وكأنها لوحة فسفورية جذابة، تتراقص فيها الألوان بين الأخضر الداكن والأصفر الذهبي.

ومع ارتفاع المنطاد، صغرت القرية وبحيرة الثرثار، أضحت نعالمها وكأنها ثقوب سوداء أحدثتها براكين قديمة، كتلك التي تعانق جبال اليمن. هكذا بدت لي تلك البيوتات الصغيرة، المنتشرة على وجه الأرض، والمتناثرة على سفوح التلال التي بنيت عليها.

مضى المنطاد في رحلته بسرعة الريح، متجهًا نحو المجهول، يزحف بي فوق الجبال والأنهار والقفار والصحارى، عابرًا البحار والبحيرات المخيفة، الواسعة بجنون. حتى أنني صرت

أكفّ النظر إلى الأسفل، نتيجة الخوف والقلق الذي بدأ يرهب مشاعري، ويشعرني بدوارٍ جال في رأسي، اختزل إرادتي. ذلك الرعب الذي داهمني جعلني أسبّح وأحمد الله، وأقرأ آيات مما أحفظ من القرآن الكريم، أرجو بها حفظ الله، وأستجير بها لوهدة الأمان.

بدأت براثن الوحشة تهجم عليّ، ترعبني، توخز مخالب الخوف في مشاعري، تخدش صبري وتبعثر ظنوني. وعلى الرغم من استمتاعي بتلك الحرية التي بدأت أتحسس فراءها منذ لحظة الانطلاق، تلك التي تستحق التضحية والمجازفة، إلا أنني في ذات الوقت هجست لها أسنانًا حادة، وكأنها غرزتها في كنفي ووجسي وصبري الذي بات ينزف ندمًا على تسرعي.

أضحت تقضم مشاعري بسبب الوحدة التي بدأت أشعر بها مع حلكة الليل وسواد الظنون، بل صارت ترهقني، ترعبني مع السكون الطاغي على الأجواء. لتلك الحرية التي أبحث عنها طاقة محدودة، ربما تشفّ قبل أن أنالها في حياتي، وربما تتبخر وأنا لا زلت قابعًا في ظل منطادٍ معلقٍ في جوف السماء.

كأنها برزت لها أشواك مؤلمة، كأشواك الصبّير، تقرّح ظني، تشكّ ذهني، وتجهض يقيني وهوسي وتطلعي. تلك الطاقة إن نفدت وأنا معلق في السماء، قد تجبرني على الخنوع والنكوص في جحر زاوية الحلم، قد تجرّني إلى حالة من الهشاشة والتفاهة، إلى شغورٍ وغياهب تحيل صبري إلى عهنٍ

هشّ، إلى شراشير تتلاعب بي الريح دون أنيسٍ ينتشلني من تلك الوحشة التي ركبت ذهني مع دخولي في جوف الغسق.

تلك الوحشة التي زحفت على مداخل فكري من محيطي الخارجي، أشبهها بسيل رعبٍ جارف، خلخل جوي، وامتد إلى أطرافي وجسدي. ومع مرور الزمن، صارت تزحف وتكبر، لتنتشر في مرافئ الذهن والجسد كالحمى؛ حتى فرغت صبري، وفتلت يقيني المراع كحبلٍ لا يقوى على الجلد. صارت الأفكار تنهش احتمالات النجاح المقشعة كبكتيريا العفن، قبل أن تميس واقع قدري المزري ومستقبلي المجهول.

ما برحت تلك الأحلام التي تصبغت بالأمل، أضحت أشبه بجسدٍ منخل، تنزف على رفوفها، تستغيث من الغموض والمجهولية. أضحيت كطيرٍ مذبوح، أرفس تحت قدميّ وسليط عنادي. هكذا ركبتني الرعشة، مفتقدًا كل شيءٍ يزيل عني همّي، ويشيع في قلبي الأمان في تلك الساعة والوحدة، إلا نزرًا يسيرًا من فتون العقل، عالجت به هوسي وقلقي الداخلي، حتى أجتاز تلك المحنة.

وما إن دخلت بطون الغسق حتى هجست بهيعة الشك، إذ تملكتني فكرة تجاوز العقدة، خرقت هواجسي، وجعلتني أزحف نادمًا على فعلتي وهروبي من القرية. كأنّ رحلتي المجهولة التي تلبستُ بها قد تلبستْ بها أنفاس أبي وعيون الحاسدين والمغرضين لي. أضحت الرحلة في خيالي ذات نهاية طبيعية في سدم الحيرة والعذاب والمجهولية والفشل.

الحيـرة تتـوجس قـدري، تراقبنـي، مـن جهـة تتحسـس صـبري، ومن جهة أخرى تراقب نفاد الوقود.

غـدت اللحظـة فـي مشـواري دقيقـة، والدقيقـة سـاعة، مـع شـعوري بالتيـه، ومـع بـدء الرهبـة وهـي تُشْـكِلُ ذاتـي بلـون القـتم الـذي بـات ينسـلخ مـن دماسـة المحـيط، والفتنـة التـي ركبـت الأجـواء وهـي تسـرق فكـري بأضـواء العجـب. الأحـلام شعشـعت أرديتهـا، وتبـدلت المفـاهيم فـي ذهنـي، تكبلـتُ بتلـك الارتفاعـات والمخـاوف فـي الرحلـة المجهولـة، بـتُّ أخـاف مـن الشـك والنهايـة الغامضـة، بـل شـرعت أحسـب إمكانيـة نفـاد الغـاز قبـل أن يسـتقر المنطـاد على سطح الأرض.

هكـذا وجـدت ذاتـي تتـدحرج فـي ممـرات التيـه، تتلاعـب بهـا الأهـواء كتلاعـب الـريح بـأوراق الشـجر، عائمًـا فـي وسـط دماسـة لا حـدود لهـا، البحـار والجبـال تتحـرك تحتـي، القتامـة سـائدة، غـدوت كـالأعمى، لا أعـرف أيـن مـوقعي مـن أثـري، ولا أعلـم بحقيقة مصيري.

فـي الوقـت الـذي شـعرت فيـه بـأني قـد تجـاوزت قيـد أبـي، كنـت قـد تجـرأت علـى الظـرف والواقـع المتزمـت الـذي فرضـه علـيّ فتـرة تواجـدي بالقريـة. حينهـا تجـردت مـن حـدود المعتقـل الـذي قيّـد أحاسيسـي، وأوهـن فكـري، وخنـق هوايـاتي. ذلـك الظـرف الـذي ألغـى تطلعـاتي الفتيـة خلـف أحلامـي البنفسـجية بسـوط أبـي. كـل ذلـك حـدث بمجـرد أن ارتفـع المنطـاد عـن سـطح الأرض بأمتـار فقـط، حـين لمسـت ذاتـي وهـي تكسـر قيـد أبـي، حـين سـلمت أمـري لمسـرى الـريح التـي أضـحت النـوتي تسـوق المنطـاد وتجـري بـه

فـي مسـاراتها إلـى حيـث المجهـول. فـي تلـك اللحظـة، كـأني قـد تملكـت الـدنيا. غيـر أن هـذا الإحسـاس ضـعف مـع مـرور الوقـت، بهُـتَ مـع الرهبـة التـي تملكـت فكـري، حتـى سُـلِبَ منـي يقينـي وثقتي بنفسي.

مـع بـدء الرحلـة، بـدأت أؤازر ذاتـي، أشـد عليهـا لتقـوى، وجـدتها كأنهـا خرجـت مـن قوقعـة العبثيـة التـي كانـت مفروضـة علـيّ حتـى حـدود الجـد. أضـحت أعمـدة شاخصـة تسـند شخصـيتي، وتبـين لـي تطلعـاتي المسـتقبلية. لـم أكـن أشـعر بالمسـافة التـي قطعتهـا بعـد مضـي ثلاثـة ليـالٍ علـى رحلتـي الميمونـة دون أن ينفـد الغـاز، والـذي أوشـك علـى نهايتـه. حتـى أنـي كـدت أفتقـد الاتجاهـات لـولا جنـوح الشـمس فـي شـروقها وغروبهـا فـي الأفـق، والتـي بينـت لـي الموقـع الجغرافـي، ووهبتنـي شـيئًا مـن الأمـل قصـاد التعـب النفسـي الـذي تملكنـي، جـراء الإرهـاق وقلـة النـوم وعنـاء الوحشـة وضعف التغذية.

كنـت أهجـس بطـول الراحـة مـن التفكيـر الـذي أرهقنـي، حـين تسـرقني الغفـوة مـن بـين لحظـات الهـوس والخـوف. فتـرات متقطعـة دسسـت فيهـا ذاتـي تحـت وسـادة الوسـن لأنسـى الهـم، أبـرح فيهـا مـع الخـواطر إلـى حيـث السـكينة، لمـا فيهـا مـن راحـة تنسـيني شـجني ومخـاوفي. بـذلك السـلوك، صـرت أتعـود علـى العتمـة والوحشـة، رغـم زفيـف الـريح وهـي تبـث الوحشـة فـي أعمـاقي بشـيء مـن الرعـب والقلـق... المخـاوف طبيعيـة، نابعـة مـن احتماليـة نفـاد الغـاز قبـل أن أصـل إلـى رقعـة آمنـة. ربمـا ينكـت بـي القـدر، فأسـقط كحجـر فـي وسـط البحـر، فتـأكلني أسـماك

القرش. أو أسقط في وسط غابة مليئة بالوحوش فتأكلني، وقد أتحول إلى طرزان، كما في أحاديث أمي التي قصصتها عليّ قبل النوم في طفولتي.

وبعد الجهد والعناء النفسي، أفيق على سهكة الريح ولختها، وهي ترهق ذاتي بعبثها بالمنطاد، الذي أهجس به وقد أصبح كأرجوحة يختض ويخض جسدي، فأشعر بدوار في رأسي كدوار البحر، لأجد نفسي متأرجحًا بين زمجرة الرعب وشقشقة الصبر واضطراب وهوان في مواجهة القدر.

خلال الرحلة، أكلت مما حملت من فتافت الخبز وبعض البيض المسلوق، وبعض الفواكه والخضروات. بصراحة، لم تكن نفسي تطيع رغباتي في الأكل، أهجس بها مضربة عن الطعام، كنت آكل فقط كي لا أفقد وعيي بعد أن أصاب بالإعياء.

أحيانًا كنت أرمي بفتات الخبز أو ببذور حب (عين الشمس) إلى الطيور المهاجرة المارة بقربي من وز وحباري وفلامنكو، فترمي بنفسها خلف تلك القطع من الخبز والبذور المتساقطة بسرعة مدهشة. كانت فرحة وهي تلوّح لي بأجنحتها وكأنها تشكرني على كرمي، مما جعل بعضها يرافقني وتتأمل مني خيرًا. تواجدها يدل على أني قريب من أرض خصبة، كما كانت تسليني وتنسيني وحدتي وتحسسني بالأمان.. هجست بفرحها وهي تطير بقربي، من خلال هدلها وزقزقتها التي لا تنقطع، أشعر بالأمان. طالما فيها روح، فثمة حياة برفقتها، وثمة أمل في الوصول إلى شاطئ أمان في

لحظة ما. لأنها حين تهاجر، تطير فوق الأنهار والبرك المائية، لتهبط متى شعرت بالجوع والعطش.

كما وجدت في تلك الطيور التي أحببتها من النوارس وطائر النوء والغطاس والبوز والبط، تلك التي تعيش على الأسماك، وكأنها تشير إليّ بأني عائم فوق مساحة من البحر. لذا، كان تواجدها في الأجواء دليلًا يرشدني إلى مكان طيراني في لحظات العتمة.

كلما لاح لي نورس في الأفق، كنت أشعر بالرهبة من سقوط المنطاد في جوف البحر، فيما تزيدني طيور الحباري وأبو زريق والأخضر طمأنينة بتواجدي في أجواء برية قريبة من الأنهار. كنت أحسد تلك الألفة التي تجمعها، وهي تبحث عن مكان للعيش معًا، بعكس تفكير البشر.

هكذا سارت مركبتي بأمر الله، مع عطفة الريح، في طرق مجهولة لم يخطرها بشر من قبل. حتى أني شبهت رحلتي برحلة كولومبس وابن بطوطة وماجلان وغيرهم. إلا أني بدلًا من أن أرتقي مراكب السفن، استخدمت منطادًا، فتجاوزت المسافات أسرع منهم. الجبال والمرتفعات والصحاري والبحار تخطيتها بيسر. حتى أني صرت أفتخر بذاتي على إنجازي، بل أني فقت هؤلاء الرحالة وغيرهم في سفري، وربما أدركت شيئًا من مغامرات السندباد.

6- رسالة أبي

بعد ليلتين ونهار من التيه، وأنا أدور في كنف حيرتي، حطّت حمامة زاجلة رمادية على صندوق المنطاد القريب مني. كانت جميلة المظهر، منهكة من طول السفر، كأنها انعكاس لحالي. كنت قد قطعت مسافة شاسعة دون أن أدرك وجهتي، مستسلمًا للريح التي تجري بأمر الله، تدفع المنطاد نحو مصير مجهول.

كان الطائر ذو منقار أبيض طويل نسبيًا، وريش جناحيه رمادي فاتح مشوب بخطوط بيضاء وسوداء، أما ذيله فكان متدرجًا من الأبيض إلى الأسود. رأيت في ساقه رسالة، فسقيته ماءً وأطعمته من بذور الحب حتى شبع وهدأت أنفاسه، ثم فتحت الرسالة. عرفت خط صاحبها، إنه أبي! يتوسل إليّ أن أعود إلى القرية، كتب فيها:

"عد يا بني، لا تقسُ على أبيك. أنا نادم على إهمالي لك. الإنسان لا يشعر بقيمة الأشياء الثمينة إلا حين يفقدها، وأنا لم أشعر بقيمتك إلا بعد أن افتقدتك. عد، ولا تجعل ما تبقى من عمري قاتمًا. لقد أشعرتني بوحدة قاتلة بعد هروبك. أحبك... أبوك، فرج."

فكتبت له على ذات الورقة:

"لن أعود بعد أن شممت رائحة الحرية، وتملكت قراري. لم أعد أصدق وعودك، ودموعك ليست سوى دموع تماسيح. إن عدت، سأجد العقاب والعذاب في انتظاري، لأنك لم تعلمني

التسامح ولا الصدق. لا أستطيع نسيان العذاب النفسي والجسدي الذي ألحقته بي. أنت لا تفهم سوى لغة الانتقام، لا تصفح ولا تنسى من يخالفك. القسوة تجري في دمك، أنه طبع فيك لا صفة مكتسبة. إن كنت صادقًا في رغبتك بعودتي، فطلق فتنتك، وأعد لأمي مكانتها وكرامتها. هذا شرطي الوحيد. ابنك، سمير."

مسحت ظهر الحمامة، وسقيتها ماء، ثم قبلتها امتنانًا لذكائها، وأطلقتها لتعود إلى القرية.

كان وصولها قبل الظهيرة بساعتين، بينما كان زادي قد نفد وفسد، ولم يتبقَ لي سوى قليل من بذور الحب، وفتات خبز يابس، وبعض الماء والملح. الفواكه والبيض المسلوق رميتها للطيور المهاجرة بعد أن أصابها العفن. اشتد بي الجوع، خاصة بعد الظهيرة بساعتين، فحاولت سد رمقي بما توفر.

وفي لحظة شرود، شدّتني صورة طائر الحباري وقد حط على صندوق المنطاد، كأنه أصابه ما أصابني من جوع. وقف على مقود المنطاد، كأنه بعثه الله رحمة بي، ليعينني في مشواري القادم. تمكنت من اصطياده، فللجوع كلمة لا تُرد. ذبحته، ونفشت ريشه، ثم قطعته ونظفته بقليل من الماء، رششت عليه الملح، وشويته على نار المنطاد حتى احمرّ جلده وكزّ لحمه.

كان الطير كرسالة سماوية، نزلت لتفتدي روحي من فتك الجوع، كما افتُدي النبي إسماعيل عليه السلام بكبش من السماء. أكلت حتى شبعت، وكانت ألذ وجبة تذوقتها في

حيـاتي، حتـى تمنيـت أن أقـرط العظـام مـن فـرط اللـذة. للجـوع ترنيمـة لا يسـمعها إلا الجـائع، وللطيـر رسـالة زرعـت فـي قلبـي الطمأنينـة والثقـة، أننـي محمـي بقـدرة الله، وأن رحلتـي مسـيّرة لهدف أسمى.

قبـل غـروب الشـمس بسـاعة أو اثنتـين، شـعرت بـأن الغـاز علـى وشك النفـاد. تأملـت فـي داخلـي أن يكفينـي حتـى نهـار الغـد، عسـى أن أجـد بقعـة يابسـة أنـزل فيهـا، بـدلًا مـن أن أسـقط فـي البحـر أو في غابة، فأكون وجبة شهية للأسماك أو الوحوش.

كنـت خـلال فتـرة الرحلـة أحـاول أن اقتصـد بالغـاز قـدر المسـتطاع، بحيـث أطفـأ النـار فـي فتـرة التـي أكـون بهـا علـى ارتفـاع شـاهق، لأخفـف مـن نفـاذ الغـاز، لأحـافظ علـى مسـتوى ضـغطه وعلـى مسـتوى ارتفـاعي فـي الجـو. هكـذا دواليـك سـيرت المنطـاد، راغبـا أن أصـل للواجهـة التـي تـدفعني إليهـا الـريح بسـلام. وقـد تمكنـت مـن إدارة الرحلـة بإمعـان وترقـب وتهيـب على قدر استطاعتي ووعيي.

فـي جـوف الليلـة الثالثـة مـن رحلتـي الميمونـة، ومـع انحـدار الشـمس نحـو عقـر دارهـا، دخلـتُ مرحلـة الغسـق وأنـا منشـغل بـإدارة المنطـاد، يسـاورني القلـق مـن قـرب نفـاد الغـاز. اشـتدت الحلكـة فـي الأجـواء، وإذا بـي ألمـح ضـوءًا بهيجًـا يسـطع فـي الأفـق، فـي الجهـة المقابلـة للقمـر. بـدا كأنـه تـوأم جديـد لقمرنـا، يضاهيه في الجمال والسطوع، بل يكاد ينافسه في بهائه.

تساءلت في سهدي: أيمكن أن يكون للأرض قمران؟ أم أن خللًا أصاب حدقي؟ هل يولد قمر دون انفجار كوني؟ هل أنا بخير؟ أم أنني أعيش هلوسة ذهنية؟ هل أنا سويّ أم مجنون؟ أم أن الكون نفسه يعيد ترتيب خرائطه؟

بدا لي القمر الجديد أصغر حجمًا وأكثر بعدًا، فظننته في بادئ الأمر مركبة فضائية أو صاروخًا ضلّ مساره. لكن وهجه شدّني، وصرت أتابعه بين الفينة والأخرى. ومع مرور الوقت، بدا أكثر حركة ولمعانًا من القمر، فازداد قلقي.

كل ساعة تمر كان حجمه يتضاعف، ومخاوفي تتكاثر. خفت أن يكون نيزكًا ضخمًا يقترب من الأرض، بحجم كوكب عطارد. شعرت أنني أمام حالة كونية جديدة، أستشعرها بعيني وبنباهتي. وهجه بات أقرب إلى وهج الشمس، فرفعت يدي إلى السماء أدعو:

"يا إلهي، احفظ الأرض الجميلة من الدمار، ومن النكبات، يا رب احفظ البشر..."

لكن الشعلة بدأت تتجه نحوي، كأنها صاروخ موجه، يتقصدني. شيء مبهم لا أعرف كيف أواجهه. إن اقترب مني، سيدمرني. شغل بالي وزاد من همّي وحيرتي. وبعد ساعة أخرى، صار بحجم القمر، بل أشد وهجًا من الشمس نفسها. خلفه ذيل طويل متوهج، كعصف مغبر، كأنها هالة ضوئية تتبعه.

وحين اقترب، بدا كأنه ثعبان هائل، يتحرك بسرعة رهيبة، يتموج بتموج كهرومغناطيسي لولبي، يدور حول محور ثابت، يبتلع كل شيء يصادفه، حتى لو كان القمر ذاته. فاغرًا فمه، يلتهم ما يعترض طريقه.

لا، لا يمكن أن يكون قمرًا، ولا صاروخًا، ولا حتى نيزكًا. إنها حالة استفهامية لا أفهمها، مزيج من الواقع والخيال. ربما هي مركبة فضائية ضخمة، قادمة من عالم آخر. أصابني الذهول، واضطرب فكري، وهجس قلبي بما هو قادم. وأنا الوحيد المعلّق في الفضاء... كيف سأداري نفسي إن أصابني مكروه؟

اختفت الطيور التي كانت تحلق برفقتي، هبطت إلى أدنى الأرض، كأنها شعرت بخطر داهم يقترب. لطالما امتلكت الحيوانات فراسة خارقة على استشعار الشر قبل البشر بأضعاف، فقد أودع الله في الإنسان العقل ليواجه به الأخطار، بينما منح الحيوانات حاسة التحسس قبل وقوع الكوارث.

أتراني أشهد قدوم مركبة فضائية من عالم الخيال الذي طالما سكن أفكارنا؟ من تلك التي يروج لها الإعلام، تزور الأرض ثم تختفي قبل أن يُكشف سرها؟ قادمة من كواكب بعيدة، من خارج مجموعتنا الشمسية؟ أيمكن أن تكون صحونًا طائرة كما يُشاع؟ وما تلك الهالة التي تتبعها سوى دخان ينبعث من محركاتها؟ تذكرت ما يُقال عن الأنوناكي، وعن علاقتهم بالسومريين، وكيف أنهم علموا الحضارة للبشر الأوائل. ربما لم أكن بعيدًا عن الحقيقة. وما إن لاحظوا منطادي الوحيد عالقًا

فـــي الأجـــواء، حتـــى دفعهـــم الفضـــول نحـــوي، ربمـــا أرادوا اختطافي إلى عالمهم الغريب.

لكـن مـا أراه لـيس مركبـة، بـل وهـج نـار متقدة، حـرارة تصـلني مـــن بعيـــد كحـــرارة الشـــمس، بـــل تفوقهـــا. إن اقتـــرب أكثـــر، سـأحترق، سـأتفحم، سـيحرق المنطـاد ويكـويني. لحسـن حظـي أن المنطـــاد مصـــنوع مـــن جلـــود البقـــر، التـــي لا تتـــأثر بســـهولة بـــالحرارة، كمـــا أن الطبقـــات العليـــا مـــن الجـــو أقـــل حـــرارة مـــن الأرض.

أشـعر أن الـزمن تبـدّل، فالليـل نـزع ثـوب العتمـة وتحـول إلـى نهـار، أرى الأرض ومنعطفاتهـا والوديـان والبحـر مـن تحتـي، رغـم أن السـاعة تشـير إلـى منتصـف الليـل. حـين دخلـت فـي جـوف المسـاء، بـدت الشـعلة كنجمـة الصـبح، لـم تشـغلني كثيـرًا، كنت منشغلًا بأمر الغاز والعشاء وترتيب النزول.

لكـن مـا إن أنهيـت عملـي، حتـى تـراءت لـي بشـكل أكبـر، غريـب، أشـبه بـالقمر، بحجـم كـرة التـنس. ثـم بـدأت تكبـر، بحجـم كـرة القـدم، ثـم كـرة السـلة، حتـى غـدت بحجـم قبـة مسـجد. كلمـا مـر الوقـــت، زادت حجمًـــا واقترابًـــا، صـــارت تلســـعني حرارتهـــا، شعرت بعجلتها وسرعتها غير المعهودة.

بـــدأت الســـخونة تشـــتد، والعصـــف يلســـعني بغبـــاره، ارتعشـــت أوصـــالي، عشـــت حالـــة مـــن الـــذهول والحيـــرة، لا أعـــرف مـــاذا أفعـــل. علـــى وشـــك أن يلتهـــب جلـــدي، كـــدت أن أفقـــد وعيـــي. تملكنـي الخـوف، وتـذكرت دعـاء أبـي علـيّ حـين عصـيته، خفـت

على نفسي وعلى المنطاد من التلف والاحتراق، فالعصف بات يهددني بشدة.

يا ترى، ماذا أفعل؟ ماذا سيحصل لو اقتربت أكثر؟

مع تقدم الوقت، عجزت عن النظر إلى وهجه، خوفًا من أن أفقد بصري لقوة إشعاعه. حاولت التخفي تحت الغطاء، غطيت جسدي كله ببطانيتي وبمعطف الجلد، تكورت تحته، دفنت نفسي واضعًا رأسي في قلنسوة المعطف، متجنبًا شدة الضوء وعصف حرارته.

ما إن اشتد العصف بالأجواء والمنطاد، حتى شرع يلتف بي في دوامة حول دائرة قطرها عشرة أقدام، في ظل حركة كونية. صار يهتز المنطاد اهتزازات شديدة، انقلبت قنينة الغاز للجهة الأخرى، ثم فلتت لتسقط خارج حدوده، تتهاوى في الفضاء. حينها، لمحت من تحت الغطاء ذلك العصف الهائج، وإذا بي أرى كتلًا ضخمة من الأحجار الملتهبة تتحرك بسرعة رهيبة خلف الجرم، مختلفة الأحجام: أصغرها بحجم بيتنا، وأكبرها بحجم تلة. أهجس بها تمر قريبة جدًا مني، فصرت والقنينة والمنطاد جزءًا من ذلك العصف، نتحرك في مسار واحد بشكل لولبي مع تلك الأحجار بسرعة ربما تفوق سرعة الطائرة النفاثة.

صرت جزءًا من صيرورة حالة ذلك الكوكب، دخلت ضمن أجواء ذلك العصف الشديد متذيّلًا ذيله. ونتيجة السرعة والشدة، فقدت وعيي، وكل ما أتذكره أني وضعت كمامة

التنفس على أنفي وارتديت نظارات سوداء تحمي عيني من شدة وهج الضوء. كما أتذكر أن الكوكب مر من فوق رأسي لجهة القمر شمالًا، يتبعه كم هائل من الأحجار الملتهبة، فيما أنا ومنطادي صرنا جزءًا من ذلك الهباب المتحرك خلفه.

كنت فيما سبق قد قرأت كثيرًا عن علم المجرات والمجموعات الشمسية والكواكب والنجوم السوداء ذات الجاذبية الهائلة، وغيرها من المعلومات التي استقيتها من مجلة العلوم التي كانت تصلنا بين فترات متباعدة. وكنت قد أخذت فكرة لا بأس بها عن مذنب هالي الذي يزور الأرض مرة كل ستة وسبعين سنة. أدركت أني صرت جزءًا من ذلك المذنب، وربما هو فعلًا مذنب هالي.

حين فقدت وعيي، لم أدرك من الزمن والحالة التي مررت بها شيئًا، كأني دخلت في غيبوبة لا أعرف زمنها ومداها. وكأن كل شيء فيّ قد تجمد وتوقف عن الحركة: قلبي، نبضي، أعضائي، عمري، فكري، وعقلي. نتيجة السرعة الهائلة التي بات بها ذلك الجرم يسحبني خلفه، لأكون جزءًا من ذلك المذنب.

لقد انتقلت معه من نقطة كونية إلى أخرى بعيدة جدًا عن مجال الأرض وزمنها، بزمن قياسي لم أدركه لغيبوبتي. لا أدرك المسافة التي قطعتها ولا الفترة الزمنية التي مررت بها، لأني دخلت في سبات وولادة جديدة، فقدان وعي تام لا أدرك زمنه. لكن السرعة التي جرفني بها كانت قد أخرجتني من الغلاف الجوي، وأظن أنه سرقني من مجموعتنا الشمسية بقوة

العصف التي سحبني بها خلفه، فتحولت إلى نقطة مجهولة في هذا الكون لا أدرك موقعها.

لم أستعيد وعيي إلا بعد أن هدأ العصف، وأخذ المنطاد وضعه الطبيعي، وبات يهبط برواق وسلاسة فوق جزيرة صغيرة نائية شبه دائرية. ومنذ أن فقدت وعيي، لم أعد أشعر بمحيطي قط، ولم يعد لي وعي إلا بعد أن التمست الهدوء التام الذي اعترى ذهني، وذلك السكون العائم في الأجواء من حولي. وكأني وُلدت من جديد، لفقداني الشعور التام بمحيطي بتلك الفترة المجزية. عندها شعرت بالروح تسري في أنفاسي، بعد أن ساد الهدوء، وبات المنطاد يهبط بي برواق فوق تلك الجزيرة.

صار يهبط كمظلة نجاة فوق جزيرة غريبة الشكل، لا أعرف تفسيرًا لما حصل، ولكني تحسست المنطاد يهبط فوق قمة هضبة مع اختفاء تام للعصف. كما أني تمعنت في السماء، فوجدت سحرها يختلف عن سمائنا الزرقاء، وجدتها مشبعة بلون أصفر مزرق، فعرفت أني قد تجاوزت حدود الأرض تمامًا.

كان المنطاد قد فلت من عصف المذنب الذي كوره في ذنبه، ومع مرور الزمن تحرك بشكل أبطأ من المذنب حتى انفصل عن مؤخرته. صار ينفصم عنه رويدًا رويدًا، وبعد أن قطع شوطًا طويلًا من المسافة الشاسعة، تجرد عن مجاله المغناطيسي الناتج عن لولبية الحركة. الشيء الذي لمسته وأدركته أني أصبحت خارج المجموعة الشمسية تمامًا.

خـــلال وعيـــي، تحسســـت غطـــائي وأرديتـــي، وجـــدتها باليـــة، ممزقـة، تالفـة، تتفتـت بمجـرد ملامسـتها كخرقـة محترقـة، كأنهـا تعرضـت لعشـرات السـنين مـن حـرارة الشـمس. ربمـا أثـر عليهـا العصـف، أو أن مـدة فقـداني للـوعي كانـت طويلـة جـدًا. أهجـس بإعجاز ما حل بي، كإعجاز أهل الكهف.

مـا أن سـكنت الـريح وهـدأت الأجـواء مـع إشـراقة يـوم جديـد، تـوارى ذلـك العصـف. حينهـا تحسسـت ذاتـي، تحسسـت الأجـواء المحيطـة بـي، وكـأني فُقت مـن سـبات عميـق جردنـي مـن وعيـي. هجسـت بـولادة جديـدة لفظتنـي للحيـاة مـرة أخـرى، كفراشـة مزقت الشرنقة المحيطة بها.

خرجـت بـروح كـائن جديـد، لا فكـرة لـي عـن كيفيـة نجـاتي مـن تلـك الدوامـة التـي لفتنـي بثناياهـا، ولا أعـرف أيـن مـوقعي مـن خارطـة الكـون، ولا اسـمًا لهـذا الجـرم أو الكويكـب الـذي هبطـت عليه، ولكني متأكد 100% أن الكويكب ليس الأرض.

مـا أن فتحـت عينـي، حتـى وجـدت ذاتـي معلقـة بالمنطـاد الـذي صـار يهـبط بـرواق، دون قنينـة الغـاز التـي هـوت مـع أشـيائي الأخـرى. لـم يتبـقَ معـي سـوى حقيبـة جلديـة كنـت أرتـديها علـى كتفي، تحتوي على بعض لوازمي وملابسي.

مثلمـا سـرقني المـذنب مـن غـلاف الأرض، فلـتّ مـن قبضـته بمسـاعدة المنطـاد نفسـه، أو بقـدرة قـوة خارجيـة رحمـت بحـالي. ربمـا تعرضـت لجاذبيـة الكوكـب الـذي نزلـت عليـه، أو جاذبيـة كوكـب آخـر تمكـن مـن أن يسـتلني مـن قبضـة المـذنب، أو ربمـا

تعرضت لحالة لا تفسير لها، حالة فوق إدراك العقل، والله أعلم.

شبهت حالتي بحالة الأجرام المنفصلة عن أصلها، والتي تتهاوى كشهب لسرعة سقوطها واحتكاكها بغازات الغلاف الجوي. أما أنا، فقد كان للمنطاد دور في نجاتي من الكوارث، والحفاظ على حالي وحياتي من المؤثرات الخارجية

7- طبيعة الكوكب الجديد

مـا إن شـعرتُ بوجـودي بعـد أن أفقـتُ مـن تلـك الغيبوبـة التـي لا أعـرف مـداها، حتـى هجسـتُ بفـرحٍ شـفَّ قلبـي، وسـرورٍ سـرى فـي جسـدي كـأنني جرعـتُ كـأس مـاءٍ بـاردٍ أثلـج صـدري. شـعرتُ بلـذة الحيـاة، خاصـة حـين رأيـتُ المنطـاد يهـبط فـوق جزيـرةٍ تبـدو غريبـة الأطـوار، سـاحرة الملامـح. وفـي ذات اللحظـة، سـاورني قلـقٌ طبيعـي، نتيجـة مخـاوف مبهمـة سـرت كقشـعريرةٍ فـي جسدي، مخاوف من المجهول والوحدة. ترى... أين أنا؟

بـدأ المنطـاد يهـبط بسلاسـة وهـدوء فـوق بقعـةٍ لا أعـرف عنهـا شـيئًا، ولا عـن مـا تحويـه مـن عقـدٍ وأسـرار. كنـتُ لا أزال خـارج حـالتي الطبيعيـة، متـأثرًا بوقـع الرحلـة والغيبوبـة، كمـن صـحا مـن مـرضٍ طويـل، مسـطول، أهجـس بوشوشـةٍ تطـن فـي أذنـي، ودوخـةٍ لا تنفـك عـن رأسـي. افتقـدتُ التركيـز، الجـوع يعتصـر معـدتي، والظمـأ يشـق فـاهي، لا أعـرف إلـى أيـن سـأتجه، كيـف سـأعيش، كيـف سـأدبّر أمـري... تلـك الأسـئلة شـغلت تفكيـري المضطرب.

ذلـك القلـق أخـذني إلـى مصـاف النـدم، لعـدم مطاوعـة صـديقي، فيمـا هجسـتُ بالـدماء تتحـرك فـي شـراييني كمـاءٍ مغلـي، تنقـل كـل ذلـك القلـق والاضـطراب إلـى أعضـاء جسـدي. صـرتُ أرتعـش مـن قمـة رأسـي حتـى أخمـص قـدمي. نبـع ذلـك القلـق مـن الحـدة التـي وضـعتُ نفسـي فيهـا، مـن الغربـة التـي ارتـديتُ أسـمالها، مـن

الحيـرة التـي لوّنـت مشـاعري بهـا. كنـتُ ضـائعًا، لا أدرك مـا تضـمره صُـرّة الغـد لـي مـن مفاجـآت. الغربـة صـنعت الحالـة، وشتّتت ذهني، نتيجة الوجس والقلق والهوان.

لحظـات حرجـة حاولـتُ أن أنفـر منهـا، لكنهـا تمسكت بـي، نقلتنـي إلـى منعطـف الانهيـار والعصـبية، خاصـة حـين تـذكرتُ أمـي، وأختـي بثينـة الوحيـدة، وصـديقي الـوفي إبـراهيم. الحالـة جردتنـي مـن هـوس الحلـم، بعـد أن وصـلتُ إلـى نقطـة اللاعـودة، لمـا فرضه القلق من وقعٍ سيء على شخصي.

علـى أيـة حـال، تحسسـتُ الأجـواء الغريبـة المحيطـة بـي. بـدت السـماء مختنقـة بلـونٍ أصـفر مـزرَق، والجزيـرة شـبه دائريـة، أشـبه بحـوضٍ بركـاني تحيطـه سلسـلة جبليـة شـاهقة، تتـدفق منهـا شـلالات عديـدة، ويحـيط بهـا بحـرٌ واسـع مـن كـل جانـب. تنحـدر تـدرجات ارتفاعـات السلسـلة نحـو الـداخل، حتـى تسـتوي الأرض بمستوى سـطح البحـر، كمـا تتـدرج ألـوان الجزيـرة البائنـة لـي مـع الارتفاعـات. بـدا محيطهـا ينسـحب نحـو الـداخل، والقمـم الشـاهقة بيضـاء اللـون نتيجـة تـراكم الثلـوج عليهـا، يليهـا لـون داكـن لانتشـار الغابـات الطبيعيـة حتـى مسـافة لا بـأس بهـا، ثـم تتـدفق ألـوان الرمـل مـن الأصـفر إلـى التبنـي، ثـم الأبـيض فـي منطقـة الجنوب، حيث تصحرت تلك البقعة حتى حدود البحر.

فـي جانـب مـن الجزيـرة، توجـد بحيـرة هلاميـة الشـكل، كـوردةٍ دائريـة، مرتبطـة بممـراتٍ مائيـة تصـب فيهـا وأخـرى تخـرج منهـا لتصـب فـي البحـر المحـيط بـالجزيرة. كمـا تنتشـر بـين الجبـال والهضـاب أخاديـد وأخـوار ووديـان متداخلـة، تـرتبط بـالبحيرة مـن

جانبها الشمالي، أوديةٌ وأنهارٌ صغيرة حفرتها الأمطار وذوبان ثلوج القمم.

بدت ملامح البحيرة بلون السماء، متأثرةً بلون الغابة من الأشجار المحيطة بها من الجهة الشرقية، فيما تنعكس فيها صور سلسلة الجبال الجليدية التي تحدها من الشمال والغرب، إضافة إلى صحاري الجنوب الواسعة. تحيطها أشجار النخل كقلادةٍ تؤطر صدرها الصحراوي، كسلسلة طوقٍ تنير عنق البحيرة

تبدو قمم الجبال بحلية فضية، لتراكم الثلوج عليها، فيما يخف وطئها كلما انحدرنا نحو الداخل، حتى تنتهي مع ضفائر التلول المحيطة بالجزيرة، والمحزمة بطوق أخضر من أشجار الصنوبر والصفصاف.

كان لسقوط الشلالات مشهدًا يفيض بالخيال، كأنها تغرف زبدها من أعماق الأرض، فيتدفق كندف القطن، وينساب مع جريان الماء في أخاديد الوديان العميقة حتى البحيرة. ومع هبوط المنطاد، بدأت الأرض ترتفع شيئًا فشيئًا، وبدت ملامح الجزيرة تتجلى بوضوح. هجست بذاتي كأنني معلق بخيوط متدلية من النجوم، كأنني ثريا تضيء الفضاء.

غدت الأرض تبتهج مع ابتهاجي، تقترب مني برفق وحنان، على عكس رحلة الإقلاع حين كانت تصغر وتبتعد عني وهي جهمة. هجست بها رأفةً بي، استعطفت حالي بعد الشدة والعناء، أعادت لي البسمة والثقة، تحسست أطرافي ورأسي،

هـدأت دقـات قلبـي المضـطربة، وبـت أهجـس بـالجوع والعطـش، فقد نفدت طاقتي على الاحتمال.

ومـع اقتـراب المنطـاد مـن الأرض، هـدأ روعـي، وتـراءت لـي الأشـجار عـن كثـب، وكأنهـا غابـات ممتـدة مـن الخضـرة والبسـاتين، بـددت مخـاوفي تمامًـا. لا بـد أن أجـد فيهـا مـا يؤكـل، فالأمر مسألة وقت.

تـراءت لـي الأوديـة كخيـوط ممتـدة مـن أطرافهـا حتـى حـدود البحيـرة، وكأنهـا مشـابك ألفـة ومحبـة. ارتسـمت مواضـع الجـداول والأنهـار وهـي تنسـاب بـين حنايـا الجبـال وضـفائر الـتلال، فـي أخاديـد متشـعبة كـأوردة الجسـد، تسـقي البسـاتين الممتـدة نحـو الشرق والجنوب.

فـوق البحيـرة، وعلـى تلـة صـغيرة، لاح لـي قصـر أبـيض يتوسـط الجزيـرة السـاحرة، خلفـه قبـة زرقـاء علـى هيئـة نصـف كـرة، تعلـو قمـة مجـاورة. نـازعني الفضـول لمعرفـة سـرها. جـذبني سـحر القصـر بجماليـة تصـميمه وموقعـه ولونـه الأبـيض البـراق، كأنـه انعكـاس للـثلج. ذلـك القصـر الـذي داعـب أحلامـي، بـدا كصـرح مـزدان بالبهـاء والروعـة، وسـط كثافـة الشـجر والخضـرة البهيجة، يزداد ألقًا كلما اقترب المنطاد من بساط الأرض.

لـم يهـدأ لـي بـال، ولـم أشـعر براحـة نفسـية إلا حـين لامـس المنطـاد سـفح تلـة قبالـة القصـر مـن الجهـة الشـمالية للبحيـرة. اسـتقر علـى قمـة قريبـة مـن حـوض البسـاتين، قـرب عـين مـاء فـرات تنبـع مـن السـفح. ومـع نزولـي، هـدأت هواجسـي، وأنـا فـي قمـة تعبـي

ورهقي. زحفت بكل ما أملك من طاقة، لأرتمي في حوض العين، ماءها دافئ، هجست بدفء يغسل كدري، يجز عني الأرق والعناء، رغم لسعة البرد في الجو.

شربت من نميرها حتى ارتويت، وغسلت جسدي ورأسي، فشعرت بعودة الحيوية. بدلت ملابسي المتهتكة بأخرى جديدة، وجلست على رقعة خضراء من الأثل الناعم المفروش كالحرير، تتخلله ورود ربيعية متناثرة. تمددت على ظهري لأرتاح، فارتخت عضلاتي تمامًا، وأغمضت عينيّ، سابحة في تلك الألوان التي شدتني إليها، ولم أدرك ذاتي إلا وهي تنحدر في سبات عميق، حيث تشمعت جفوني بالوسن والنعاس، لزمن لم أدرك طوله.

لا أدري كم من الوقت غفوت في تلك البقعة، لكنني في قيلولتي رأيت أمي، وبثينة، وإبراهيم، وأبي. بدت أمي منهكة، تعاتبني على طول غيابي، وقد غزا الشيب رأسها وانحنى ظهرها من ثقل الأيام. أخبرتني أن إبراهيم قد سدّ فراغي في مداراتها، بينما ظل أبي على طباعه القاسية، لم يلن رغم عجزه، بل تجاهلها وتناساها، حتى دفعتها الحاجة إلى الاستجداء وطلب المعونة من الغرباء. وقعت أسيرة المرض والشكوى، تستنجد بي لأعود وأنتشلها من مأساتها. كان أبي قد حمّلها مسؤولية تمردي عليه، وظل ينصاع لرأي فتنة في تسيير شؤون حياته.

استيقظت من سباتي منتفضًا على وقع الحزن وزقزقة عصافير تجمعت حول نبع العين. هجست بها تبتهج بزواج

جديد، فتذكرت قول أمي ذات يوم: إن العصافير إذا تزاوجت، أتمّت زفافها على بركة أو عين ماء، تستحم بها مع عرسانها قبل الزفاف. حمدت الله على فأل العصافير الطيب، الذي أنقذني من وطأة الكابوس، واعتبرته مجرد أضغاث أحلام، نتاج تفكيري العميق بأمي وقلقي المتواصل عليها.

ما إن صحوت، حتى بادرت لطرد هوام الوسن عن جفوني، غسلت وجهي، ثم انحدرت كعجلة متدحرجة على السفح، متخذًا من جدول الماء طريقًا نحو البحيرة. كانت الجاذبية تسحبني نحو الأشجار المتناثرة على ضفاف الجدول، الذي بدا كمرشد يقودني برفق نحو الماء.

في الطريق، اكتشفت نباتات متنوعة موزعة على البقاع، وجدت بينها ثمرة تشبه التين، أكلت منها حتى استعاد ذهني صفاءه، وتجردت من الهلوسة التي أثارها الجوع، بعد زمن لا أستطيع تقدير مداه.

شبهت نفسي بأصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعًا، أما أنا فلا أعلم كم طال بي الزمن. تشهد على ذلك ملابسي المتهتكة، التي باتت تتفتت بين أصابعي. هل وصلت إلى هذه الحالة بفعل العصف الذي تعرضت له، أم لطول الزمن الذي مرّ عليّ؟ لا أدري... ليس لدي جواب شافٍ، لكن كل ملابسي تفتت، ولم يصمد سوى الحذاء والحقيبة، لأنهما مصنوعان من الجلد الذي يبس. الملابس التي احتفظت بها داخل الحقيبة بقيت على رونقها، بينما الحذاء

تجلد كالحقيبة، وتغير لونه، صار أشبه بخشب محترق، فقد طراوته ولونه.

ذلك ما جعلني أشك بطول زمن الرحلة، أهجس بأنها امتدت لحقبة طويلة، فملابسي صارت كأوراق الشجر اليابسة، ما إن أقبض عليها حتى تتحول إلى نثار رماد بين يديّ. أليس هذا من العجائب؟

كنت قد احتفظت ببنطال وقميص وسترة داخل حقيبتي الجلدية المحكمة الإغلاق، المحمولة على كتفي، وكأنها لم تتأثر بالعصف إلا قليلاً. ارتديت الملابس النظيفة، وغسلت الحذاء بالماء حتى استعاد شيئًا من نعومته، ثم انتعلته وانحدرت في المسلك المنعطف نحو البحيرة، كأنني أعود إلى الحياة من جديد.

8- الجزيرة العجيبة

لم أشعر بالهدوء قط، إلا حين لامست أطرافي حدود الطمأنينة بهبوط المنطاد على سفح التلة. ولم تستقر ذاتي إلا حين لاحت لعيني مباهج القصر المطلّ على البحيرة، ذلك الصرح الذي يضفي سرور إلى بهجة، فبدت الصورة ساحرة، وعندها فقط بدأت أعدّ العدّة لحياة جديدة.

جمعت أشلاء المنطاد وركنتها جانبًا بين ثنايا شجيرات مرآءة قرب نبع ماء، ثم هممت أخطو بانحدار مع مجرى جدول الماء نحو شاطئ البحيرة، لأستكشف رتم الحياة المبثوثة في محيطها، وأستمتع بفرات المياه العذبة، وبطعم ثمار النباتات الغريبة، بعد تلك المعاناة النفسية والفكرية التي أثقلت كاهلي خلال الرحلة.

استهواني السير تحت ظلال أشجار وارفة، باسقة، ذات جذور عريضة وأوراق مسطحة: من بلوط وصفصاف وإسفندان وسدرة وسنديان وخرنوب، وأخرى على مرمى البصر من أثل وصندل وقرم وكاليتوس وغار وحور. كلها تبدو بنضارة العود، بعضها نفضي، وأخرى خضريّة، مبثوثة على مدّ البصر.

هجست أن في هذه الغابة تكمن كل متطلبات الحياة السعيدة، رغم شعوري بالوحدة والغرابة وغربة النفس التي جزّلت أنفاسي، وزادت من قلقي، وقضمت على تلك السعادة

المهموسة بداخلي. فالدنيا بلا ناس لا تُداس، هكذا هو المثل الذي ينطبق على حالي.

فللغربة مفهوم شائك، فيها شيء من العقد، نتيجة خواطر متراكبة، نابعة من أحادية التفكير والمنهج، ومن تعابير الخوف والتقهقر النفسي المسيطر على ذاتي. وتلك البثور البارزة على السطح ما هي إلا قشور طفيفة من السعادة أستشعر بها.

لقد أنعم الله على هذه البقعة بأنواع النعم، إضافة إلى ما ذكرت، فقد لفتت انتباهي أشجار أخرى غائرة في أتون الغابة من فواكه وخضار منوعة. وفكرت أن وجود هذه الأشجار يستدعي وجود حيوانات مفترسة، وكنت أرتعب من الذئاب، تلك التي تختفي بين الطحالب والأدغال. صادفت في الطريق بعض السناجب والجنادب والوردان والقندس والثعالب، وشاهدت طيور القطا والسنونو وأبو منقار، إضافة إلى أنواع من الصقور: شاهين، حر، وكري، وكذلك البوم ونقار الخشب، وغيرها.

تجنبًا للمفاجآت غير السارة، وخوفًا من المجهول الكامن في فكري، بتّ أسير على أطراف الغابة، حيث تتخللها أشجار نفضية من الزان والحور والأرز والجوز واللوز والبندق والأيلنط والمحلب وغيرها من الأشجار المثمرة والمجدبة العقيمة. تجد أوراقها النفضية مبعثرة على الأرض كبساط من ألوان الطيف: أوراق مصفرة، محمرة، وأخرى بنية داكنة وفاتحة. في ركمها شيء من الإبداع، فالألوان تبدو مموجة

بالشفق، تشهق بالألق تحت خيوط الشمس، تتداخل بظلال الأشجار، وتفرج عن منظر ساحر يشهق بخيال غائر في فتنة الألوان، يجذب الأنظار، وكأني أجاري الزمن في موسم الخريف الذي نعرفه.

ومع تواتر الخطوات، تهجس البحيرة بين ثنايا الأشجار، تلاعبني بلعبة الغش والاختفاء، تتحايل عليّ، تهجس بها متسمّرة خلف الظن والحيرة، تخفي ذاتها بين التلال ومنحنيات الأفق، وخلف ظلال الأشجار الباسقة، ثم تطفح على السطح من زاوية أخرى، فتبث في روحي الأمل والتفاؤل. هكذا، في آخر المشوار، برزت من القمقم وأنا على بعد خطوات من الوصول إلى شاطئها الساحر.

ظهرت بولادة أبهى وأجمل مما كنت أظن، تجلّت ملامحها عن قرب، تخاصم التلال والأودية الملتوية ببهاء طلّتها ورونقها. أهجس بها كفاتنة ترقد على بساط من الخضرة، تحت ظلال أشجار وارفة تحيط بها، من شجر النخيل كقلادة من الزمرد.

فيما الأشجار من حور وبلوط وصفصاف منتشرة في ثنايا الغابة المحاذية لها، تحتضن أنواعا أخرى من أشجار الفواكه والخضار من برتقال وليمون ورمان وخوخ وإجاص وتفاح وكروم، وأخرى متسلقة ملتفة على سيقانها من ورود ولبلاب وسرخس وأعناب و...الخ وأنواع غريبة لا أعرف لها أسماء.

تجوب أجواء الغابة أصوات سقسقة الطيور المختلفة: من زقزقة العصافير وزرزرة الزرازير، وتغاريد العنادل، وهديل الحمام، وصفير الكروان. أصوات ممزوجة بزيطة الفرح، تتخللها طقطقة القطا، وعقعقة العقعق، ونعق الغربان، ووسوسة السنونو والكروان، ومرح طيور الحب مع جريان الجدول، وخرير الخلجان المنحدرة نحو حوض البحيرة.

وفيما تصدح الورود ببهجتها، تبتهج معها طيور غريبة صغيرة الحجم، بقدر حبة بذرة المشمش، تضيف إلى الأجواء عزفًا متناغمًا بأصوات غنائية متداخلة: صدح الهدهد، ورفراف الرقراق، وعزف الوروار، ومكاء، ونعب الببغاء، وسرد السمان، والشنار، والفزان، والشقراق. حتى إنني بتُّ لا أميز بين ألوان الريش وألوان الورود المتناثرة من حولي، إذ تتداخل ألوان الطيور مع شعشعة الورود المبتهجة من ياسمين ونسرين ونرجس وجوري وكادي وجلنار ولافندر ودفلة وزعفران وفل وتوليب.

ورود أخرى زاهية تشع بهجة في النفوس بألوان صفراء وحمراء وبيضاء وزرقاء ووردية وبرتقالية ونرجسية وبنفسجية وفيروزية عجيبة. تقابلها على الطرف الآخر شعل من سوسن ولوتس وقوس قزح وكاميليا وشارون وقرطاسية، وأخرى لأول مرة أراها لا أعرف لها أسماء، مشبعة بألوان الطيف، تفتح النفس بألوانها الزاهية وأوراقها النحيفة والمسطحة والعريضة، تشع في الروح بهجة بعبقها وطيبها وعبيرها وعطرها الناهد، ناهيك عن تلك التي تتسلق الأشجار

مـن ورود مرجانيـة وجهنميـة مزهـوة بـألوان الطيـف مـن قـوس قزح.

تهجـس بتلـك الطيـور وهـي تتنقـل بـين الأغصـان فرحـة جـذلى، تتغنـى بمـا فضـلها الله وميزهـا مـن بهـاء وسـحر وبهجـة ورقـة وجمـال، كأنهـا طيـور الجنـة بحـق، ملفتـة للنظـر. ترفـد هـذه الأغصـان الخضـراء أيضًـا طيـور الحـب، مزهـوة بألوانهـا الفسـفورية، بـريش رائـج بـألوان الطيـف: خضـراء، حمـراء، صـفراء، برتقاليـة، زرقـاء، وخالصـة البيـاض. أهجـس بهـا تميـل مـع النسـائم الهادئـة، تتنقـل مـن غصـن لآخـر، أشـعر برفيفهـا وهـي ترحـب بـي فـي وسـط الجزيـرة، وجـدتها تـداعب الـورود البهيجـة تـارة وتـداعبني تـارة، تحـط علـى كتفـي ورأسـي وأنـا أمشـي بـين تلك الورود الملونة، منتعشًا بفيض عطورها كملك زماني.

جماليـة الـورود المنبسـطة والمتسلسـلة فـي تناسـق ولطـف تجتـذب الطيـور، بعضـها يطـوق الـبعض الآخـر بألفـة ومحبـة، تحـيط بأسـيجتها أطـواق مـن شـجيرات الدفلـة بورودهـا الورديـة والبنفسـجية والحمـراء والصـفراء، إضـافة إلـى القرنفـل ذي العشـق البرتقـالي، والزعفـران الأصـفر، والأوراس الأبـيض، والغارديـنيا الأبـيض والأحمـر، متداخلـة مـع شـجيرات الأس علـى مدى الطريق الواصل إلى شاطئ البحيرة.

مـن خـلال التنسـيق فـي ترتيـب الـورود والأشـجار، علمـت بـأن الجزيـرة مسـكونة مـن قبـل البشـر. لا يخلـو الطريـق مـن الطيـور الجارحـة: مـن صـقور وبـاز وباشـق وبـوم، تزاحمهـا نسـور وعقـاب معلقـة فـي ذوائـب الأشـجار الباسـقة وفـوق قمـم الجبـال

العالية، وتلك التي تدور في السماء، كأنها تحرس الجزيرة من العبث.

انحدرت مع ذلك المسلك مدة ثلاث ساعات من المشي أو أكثر، دون أن أشعر بالتعب، مترنحًا في ذلك الطريق المنعش الذي يفيض بالحيوية وعذوبة الرياحين. في داخلي، تمنيت ألا ينتهي بي المسار، لشذى العطور السابحة فيه، غير أن الوحشة والوحدة التي بدأت تتسلل إلى نفسي باتت تقلقني، تدفعني إلى الإسراع في خطواتي، لأتجاوز عقد الظن والمسير، خوفًا من بعبع المجهول الطارق، ومن مفاجآت غير سارة، أو حيوانات مفترسة قد تداهمني دون سابق إنذار.

كنت مشغول البال بالكابوس الذي داهمني في حلمي أو رؤياي، شغلني بوضع أمي الكسيف إن صدقت الرؤيا. باتت الفكرة تدور في فلك ظني دون إرادة، أهجس بندم شديد على اتخاذ قرار السفر والابتعاد عنها، فهي بذاتها مكسورة الجناح، لا تستطيع تدبير أمر رزقها دون مساعدة. وخلال الطريق، شغلني التفكير بقطف بعض الفواكه والثمار الدانية قطوفها، مما لذ وطاب من أعناب وتين ورمان وتفاح وخوخ وكمثرى وحمضيات، داعيًا الله أن يرزق أمي ويرفقها بعناية تعينها على الجلد في غيابي.

كنت أمشي بخطوات مأسورة بين رعب وهلع من المجهول القابع في الظن، وبين جنوح الذاكرة وشوقي لأمي وأختي. أهجس بأن الله، الذي أنعم علي ونقلني إلى هذا العالم الغريب المليء بالخير والعطاء، لن ينساها أو يتخلى عنها قط. هي

مأسورة بين جدران الوحدة اللعينة، وجلد أبي الظالم. حتى صرت أفكر بأبي كثيرًا: يا ترى، من أين أتى بهذه الفلسفة التي يؤمن بها، وتلك القساوة التي قمصت شخصيته؟

وأنا أسير في وحدتي، اختلّ توازني، نتيجة تفكير مضطرب وندم على فراقها، وتمسك بخيط غرور زائغ بنفسي وظني. صرت ألوم أبي على ما أوصلني إليه. فلولاه، ما فكرت بالهجرة ولا جازفت. لكن الله أراد أن أنجز مهمة قد ترفعني مستقبلاً إلى درجة رفيعة.

نعم، هو السبب! هو من قيد تطلعاتي، ولاحقني بلعنته، وتركنا نعاني الفقر والعوز باستمرار. حتى وأنا هنا، أهجس بذاتي بحاجة إلى يد المساعدة. لقد قصّر كثيرًا في تربيتي وتلبية مقتضياتنا، جرد حياتنا من مستلزمات الراحة، ومنع عنا خط العزة والرفعة، والهاتف والموبايل. كل زملائي في المدرسة كانوا يمتلكون هواتف نقالة وعجلات فارهة، إلا أنا... إلا أنا، بقيت أتنهد في صمت، أحلم باقتناء هاتف. لو ملكت الهاتف، لعرفت من خلاله وضع أمي الحالي، واطلعت على الكثير مما يدور في عالمي الغائب من أمور وتغيرات وتطورات تخص التكنولوجيا والثقافة والسياسة. كنت سأحسم حساباتي أسرع، وربما ما كنت لأفكر بالهرب بتاتًا، حتى وإن حانت لي الفرصة.

كنت قد اقتنيت هاتفًا من النوع القديم، دون شاشة، فقط لأجل التواصل، وقد تركته في البيت لتستعين به أمي. وكنت أرتدي ساعة يدوية، لكنها توقفت، ربما نفدت بطاريتها.

مـن شـدة حنقـه علينـا، منـع عنـا شاشـة التلفـاز بعـد طـلاق أمـي. كنـت أشـاهد التلفـاز فـي المقـاهي، فـي الوقـت الـذي كـان يمنعنـي فيـه مـن الجلـوس فيهـا. لـم يكـن يأبـه لكـلام النـاس أو ملامـتهم لـه، لـذلك جعلنـي أهـرب مـن قفـص سـجنه الـذي قيـدني فيـه، بحيـث لـم أكـن أسـتطيع أن أتـنفس إلا بـأمره. ولا أنسـى يـوم شـاهدني أتـابع فيلمًـا هنـديًا مـن علـى الشاشـة وأنـا أقـف خـارج المقهـى، وخـلال انـدماجي فـي القصـة، لـم أشـعر إلا بضـربة كـف شـديدة علـى عنقي، جعلتني أهرب نحو المنزل دون وعي...

علـى أيـة حـال، مضـيتُ سـائرًا فـي دربـي، أتعثـر خلـف المغريـات التـي صـارت تصـاحبني وتقـودني نحـو المجهـول، وقـد جردتنـي مـن الكـابوس الـذي أثّـر بـي وأعمـاني. وفـي وسـط الطريـق، وجـدتُ حوضًـا مـن الخضـار مفروشًـا تحـت ظـلال الأشـجار، فيـه مـا لـذّ وطـاب مـن خيـار وبطـيخ وطمـاطم وباميـا وباذنجـان وبطاطـا وبصـل، وأنـواع مـن الخضـرة: بقـدونس، رشـاد، جرجيـر، كـرفس، فجـل، حميضـة، وجـزر. بألوانهـا الزاهيـة، تفتـرش بسـاط الأرض كبسـاط مـن الـنعم. أتخمـتُ بطنـي مـن الرقـي والبطـيخ والخيـار، قبـل أن أمسـك بمسـربٍ انحـداري نحـو فج البحيرة والقصر.

بعـد أن قطعـتُ مسـافة، وعلـى بعـد مفـازة مـن البحيـرة، جلسـتُ أستمتع بهـدوء المنظـر، وأنـا ألهـي نفسـي ببرتقالـة كنـت قـد قطفتهـا فـي طريقـي. كـان المنظـر رائعًـا، ممتعًـا، كأنـه يتـدفق مـن وحـي الخيـال، فينسـاب كبراعـة علـى الحـدق. النخـل الباسـق يطـوّق

عنق البحيرة، يعانق جيدًا ناصعًا من صفاء الرمل الناعم بلون العشق التبني، جذابًا للنظر، خاصة حين ينعم بظلال سعف النخيل الأخضر، مع زرقة وصفرة المياه والسماء. منظر بهيج، كأنه استعار لونه من خيوط الشمس وتلك الظلال الداكنة المحيطة به، يبدو كلوحة من عصور الوسطى، تعصف بالخيال لأبعادها المتداخلة والمتشعبة بين الحقيقة والسراب.

وأنا أتمعن في محيطي، أهجس بتبدل لوحة النظر مع اللحظة المارقة، وبالذات مع تغيّر موقعي من منظر الرمل والبحيرة، لاختلاف زوايا الرؤية. في كل لحظة، هناك سحر يشدني إليه، وحسب الموقع الذي أكون فيه، استنادًا إلى نظرية أينشتاين النسبية، وذلك لتأثير البحيرة بمحيطها واستقطابها للون السماء، إلى جانب انعكاسات وانكسارات ألوان وطيف الورود في المياه، وهي تضفي ألوانًا زاهية وظلالًا وارفة. ناهيك عن اكتسابها لتلك الدكنة من الظلال المحيطة بها، خاصة في ظل وجود ضوء الشمس وانعكاساته في مياهها حين ترتفع في الأفق.

ما إن اجتزتُ المفازة، حتى انكشفت أمامي البحيرة عن قرب، وهي تغزل ألقها بسرب من الطيور العاشقة، الصدّاحة، المختلفة، المنبثّة بألوان الطيف. تلك التي تغازل شواطئها بعشق حميم: طيور من بجع، وأبي قردان، ولقلق، وكناري، وفلامنكو، وأنواع عديدة من فصيلة البط والوز والغطاس. تحرسها طيور نوارس، وطائر النوء، وآكلي السمك، تلك التي تسبح على مسافات متجاورة من عمق البحيرة، وأخرى طائرة

فـي الأجـواء مـن رفـراف وسـنونو، تزيـد الأجـواء بهجـة وألقًـا، كأنهـا تشـرف علـى الجزيـرة والبحيـرة مـن الغربـاء، وتتبـع كـل طـارئ جديـد فيهـا. فيمـا تسـترق الأنظـار طيـور عديـدة بهيجـة، صـغيرة الحجـم بحجـم نـواة الخـوخ، بألوانهـا المـورّدة بـالحمرة والصـفرة الزاهيـة، حـين تتقفـز بـين أغصـان الـورود، وأخـرى أكبر منها قليلًا تطير بين الأغصان الدانية.

وجـدتُ طيـورًا حذقـة، خفيفـة الظـل، عائمـة فـي الشـوارع والطرقـات مـن سـنونو، وشـقراق، وفـزان، وهدهـد، تشـبه طيـور الجنـة، تجـوب شـاطئ الكـورنيش كـالحراس، لا تكـلّ ولا تتعـب مـن طيرانهـا الواهـف المـنخفض. تهجـس بهـا كشـذرات الـورود القزحيـة، تضـفي ألفـة سـاحرة علـى التخـوم المتقاربـة بحركاتهـا اللولبيـة وتنقلاتهـا السـريعة. كأنهـا تلهـو وتـزاحم بطيرانهـا الفراشـات الزاهيـة، تلـك التـي مـنّ الله عليهـا بـألوان قزحيـة تجتـذب الأنظـار، لطيرانهـا الرفيـف قـرب تلـك الأزاهيـر المراقـة، بمجـسّ طيـف الألـوان البراقـة المشـظّاة. تتنقـل مـن زهـرة لأخـرى، والطيـور تصـدح كأنهـا تـود أن تخبـر الجزيـرة بوجـود شخص غريب عليها.

9- الأميرة

ترى، أين أنا يا رب؟ أفي مملكة الأنس أم في مملكة الجان؟

الهدوء يكتنف أجواء الجزيرة، يمتد كوشاح من سحرٍ وجمالٍ متربعٍ على بقاعها، مبطّنٍ بسمائها وسماتها، يغمرها فيض الماء ونضارة الخضرة حتى مدّ البصر.

غسلت وجهي بنمير مياه البحيرة الباردة، فشعرت بدفقٍ من حنينٍ وسكينةٍ ينبثق من هذا الرواق العجيب. شربت حتى ارتويت من زلالها، فانسل الكدر عن أوصالي، وهجست أن ذاتي استعادت نشاطها ونضارتها، كأنها تلامس لغزًا دفينًا يسكن أعماقها.

لم أكن أعلم أن للدهشة طعمًا يُحَسّ، ولا لونًا يُرى، ولا صوتًا يُسمع... حتى تلك اللحظة التي خُيّل لي فيها أنني خرجت من جسدي، ووقفت أمام مشهدٍ يطابق حلم الطفولة الذي راودني مرارًا. بل هو شيء من المستحيل، كأنما خُلق المشهد ليُدهش ذاتي فقط.

استهوتني مفاتن المناظر الخلابة، فساقتني قدماي مع دوران شاطئ البحيرة المزخرف بأنواع الورود نحو مسرى القصر. وأنا أسير برفقة الطيور، شعرت كأنني أمشي في شارع الموكب لمدينة بابل الأثرية. الطيور مسترسلة في سقسقتها، تتلون بقزحية ألوانها الساحرة، ترفرف على ضفاف

الكـورنيش، كأنهـا فرحـة بقـدومي، ترسـل نـداءً للجزيـرة بـأن غريبًا قد حلّ بها.

كـأنني أسـير فـي طريـقٍ معبّدٍ خصيصًـا للملـوك وأمـراء العصـور السـحيقة. اتجهـت إلـى القصـر الـذي بـدأت ملامحـه تتضـح لـي، برفقـة الطيـور، علّنـي أكتشـف الأسـرار الكامنـة خلـف هـذه الجنينة المدهشة.

كنـت أمشـي وحـزمٌ مـن الطيـور الصـادحة تصـاحبني، تـدور حـول رأسـي بطيـرانٍ رفيـف، تزقـزق، تغنـي، تهـدل، كـلٌّ علـى شـاكلته، بصـوتٍ رنـيمٍ يدغـدغ المشـاعر، يلهـب الأحاسـيس، يرافقنـي كظلـي، كأنهـا تزفنـي بزقزقتهـا الشـجية لعروسـتي الجميلـة. أحيانًـا تحـط علـى رأسـي، وأحيانًـا علـى كتفـي، فـي زفـة ترحيـبٍ بديعـة، فرحةٍ بقدومي على أكمل وجه.

وعلـى مرمـى البصـر، لمحـت طـائرة صـفراء صـغيرة جاثمـة علـى بعـد مئتـي متـر مـن القصـر، تشـبه تلـك التـي اسـتخدمت فـي الحـرب العالميـة الأولـى، رابضـة فـي سـاحةٍ منخفضـةٍ جانبيـة، تحـيط بهـا تلـولٌ صـغيرة، يمتـد مـدرجها بمحـاذاة نهـرٍ صـغيرٍ يتجـه غربًـا، وكأنهـا جـزءٌ مـن كماليـات خـواطر أحلامـي الطفولية.

أضـفت الطـائرة رونقًـا خاصًـا علـى ضـفاف الجنينـة، وكأنهـا توقيـعٌ أخيـر علـى لوحـةٍ مـن أحـلام الطفولـة. لا بـد أن هنـاك مـن يقطـن هـذه الجزيـرة، فقصـرٌ شـامخ، وطـائرةٌ صـفراء، وقبـةٌ زرقـاء تشـير إلـى صـرحٍ علمـيٍّ ملمـوس، كلهـا دلائـل علـى وجـود

بشرٍ يديرون هذا المكان العجيب. صرت أتطلع إلى ملاقاة أحدهم، ليرشدني إلى موضعي ومكاني من هذا الكون. كنت واثقًا أنني خرجت عن المجموعة الشمسية، أو على الأقل تجاوزت غلاف الأرض. فحتى لون السماء هنا يختلف تمامًا عن لون سماء الأرض، وثيابي تهتكت، ربما بعصف مذنب، أو لطول فترة سفري الذي يقاس بالسنة الضوئية. كل ذلك يؤكد أن الرحلة جردتني من واقعي، وألقت بي في واقعٍ جديد، خارج جاذبية الأرض، ملتحقًا بمذنبٍ من المذنبات.

تلك حقائق أتذكرها جيدًا. لكن... أين أنا؟ ذلك هو السؤال الذي أبحث عن إجابته في هذه الجزيرة.

واصلت طريقي نحو القصر، برفقة زيطة الطيور، وكنت واثقًا أن وراء هذا الجمال أنثى. لا بد من أنثى تجمّل الجزيرة والقصر، وتضفي عليهما سحرًا من ألقها، وإلا فلن يكون لما حولي من مفاتن معنى أو قيمة. أؤمن أن الله خلق الكون وكل ما فيه من جمال لأجل إسعاد الرجل، لأنه كُلّف بعمارة الأرض، وفُرضت عليه الشرائع. والجزيرة، بما فيها من فتنة وجمال، تحمل شيئًا من سحر المرأة، والمرأة بدورها تحمل شيئًا من جمال الإله.

هجست بسحر المرأة وتأثيرها، بذوقها ورونقها، ولابد أن يكون لها بصمة واضحة على هذه الجزيرة. خمنت أن في القصر امرأة، لا محالة.

لقد ميّز الله المرأة بصفاتٍ فريدة، لا توجد إلا فيه سبحانه، أضفى عليها من روحه جمالًا، ومن عاطفته حنانًا، ومن رقّته قوة، ومن زينته فتنة، ومن صفاته مزيجًا من المكر والصبر والعطف والبأس. جعل سرّ قوتها في رقتها، وسحرها في فتنتها، ومكرها في جمالها. زينها بزينة العقل والأدب والحياء، فإن استخدمتها كما أراد، كانت الأجمل، وإن انحرفت، قبّحت ذاتها. جعلها آيةً من آياته، لذا قال: الجنة تحت أقدام الأمهات. ولهذا ترى الرجل يغوص في محبة المرأة ذات الفتنة والحياء، حتى يصل في سره إلى حالة من العبادة. وإن كان ملحدًا، فعليه أن يتفكر في خلقها، فيعود عن ضلاله.

تلك هي رحمة الله الواسعة، جعلها تلامس قلب الرجل دون أن يعلم، وجعلها في أبسط خلقه دون أن ينتبه. بتُّ أهجس بضفائر الحلم تفتل أمامي كحقيقة، وكأن القدر الذي ساقني إلى الجزيرة قد وضب النية لأرقد بين تلك الأحلام الفتية وتطبيقها. أو قل: خلقني الله لها، أو خلقها لأجلي. لا فرق، فالاحتمالان يُنسجان ذات البساط من رئة واحدة.

ومع اقتراب خطواتي من القصر، بانت لي القبة كصرحٍ زجاجيٍّ كبير، مشيّد من مكعباتٍ شفافة، في موضعٍ مميز على قمةٍ تقع خلف القصر، على بعد لا يقل عن كيلومتر واحد. صرحٌ واضح، بان لي أكبر بكثير مما توقعت، يضاهي حجم القصر الوحيد في الجزيرة. كما لاح لي في الجهة الشرقية من القصر بناءٌ ملحق، يبدو كمطارٍ صغير قرب الطائرة، وأظنه دار ضيافة.

بناء مربع من طابق واحد، تحيط به حدائق ورود كتلك التي تفيض حول القصر.

بصراحة، كنت تائهًا، لا أعرف إلى أين أمضي، غارقًا في غيٍّ من أمري. لكن حين لاح القصر أمامي، وتلك الطائرة الجاثمة في ركنٍ من وهدة الجزيرة، بدأت أحدد هدفي لأصل إلى مبتغاي، وكأنني كنت أهيّئ الأمور على نارٍ هادئة لأدرك غايتي.

صرت أبحث عن أصحاب القصر والطائرة لأتحدث معهم، إذ كنت تائهًا أبحث عن مكاني في خارطة الكون. كنت أهجس بذاتي، وكأنني دخلت متاهة، وكل ما حولي يوحي بأنني خارج حدود الأرض التي أعرفها. الصورة توحي إليّ بأنني دخلت الجنة التي وعد الله بها المؤمنين دون حساب، لا ينقصها سوى حور العين... جنة خالية من البشر، خالية من الحور والولدان والأرائك وأنهار الخمر والعسل. جنة مهجورة، كل شيء فيها متاح مما ذكره الله في قرآنه الكريم. جزيرة صغيرة، محدودة الأطراف بالبحار والجبال، يمكن أن أسميها "جنينة مصغرة"، خالية من عبث البشر وفوضاهم، إنها جنة الطيور والنباتات والطبيعة.

لكن وجود الطائرة يشير إلى أن هناك من يقطنها، والقصر كذلك واضح في بنائه الهندسي الغريب، وتلك القبة الزرقاء الجميلة لم تُبنَ إلا لغرض السكن والدراسة. خطر في بالي سؤال عابر، وبدأت أشكك في قدراتي العقلية: يا ترى، هل يمكن أن يكون سكان الجزيرة من الجن؟ كما كنا نقرأ في

قصص "ألف ليلة وليلة" وغيرها؟ أيمكن أن تكون لأجناس غير بشرية؟ كما أوحت إلينا أفلام الأطباق الطائرة أو الأنوناكي عند السومريين والأكديين والبابليين؟

هكذا، كانت قدماي تنقلاني إلى تلك المتاهة دون إرادة، بينما أوصالي ترتعش خوفًا من المجهول. كان عليّ أن أتخطى حاجز الخوف، أن أستعد للمواجهة والمجابهة مع هؤلاء لأضع النقاط على الحروف. لقد دخلت قوس المواجهة بحثًا عن المصير بين تلك المخلوقات والتخيلات، حيث لا حلول أمامي لفك أنشوطة أزمتي التي باتت تقهرني إلا بالمجابهة والمواجهة لأعرف أين أنا. أدرك جيدًا أن المواجهة هي أسمى الطرق لتخطي الأزمات.

رغم وضعي المزري، كنت أشعر بأنني مأمور بإرادتي التي خرجت عن طوع والدي وذاتي، لأركب جناح الهوس الذي تلاعب بعقلي. هكذا أرشدني عقلي إلى حيث المصير. بدأت أفكر في البحث عمّا وراء ذلك القصر، عن دهاليزه، عن أسرار الجزيرة التي قد تشفع لحالتي وتنتشلني من هوس الجنون والرعب الذي ركب مشاعري.

وقبل أن أصل إلى حدود القصر، وعلى بعد خطوات وشيكة منه، أسرت عينيّ صورة ملاك طاهرة، سرقت لواحظي بثوبها الأبيض المشرئب بحرير من سندس وإستبرق فاقع اللون، والمنمق بحبات من خرز العقيق وقطع مدلات من الفيروز. ثوب صدره مرصّع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد. تحيط بها مجموعة طيور من فزان وطاووس وطيهوج، منفشة

ريشها بتفاخر، وأنواع أخرى مختلفة من حمام ويمام وقبج، تدور حول كرسيها، وأخرى من فصيلة الببغاوية، ملونة بلون أخضر مصفر، وطيور أليفة صغيرة الحجم، براقة وسريعة الحركة.

كانت تلك الآية ترتدي في يديها وقدميها أساور وحجول ذهبية مرصعة بأحجار كريمة: أساور من ذهب وماس، وحجل من البلاتين. فيما يزدان مقعدها بأحجار كريمة ملونة من زمرد وتوباز وجرانيت ومرجان وكوارتز، بتناسق مبهر مع تداخل الألوان في بعضها لتبدو القوائم بشكل فسيفساء جذاب..

يغطي كتفها شالٌ من الكتان الأخضر الزيتوني، مطعّم بحاشية زعفرانية ومطرّز بخيوط الإبريسم ونمنمات ملونة تنبض بالحياة. يحيط عنقها شريطٌ فضي عريض من الدانتيل اللامع، ويشد خصرها حزامٌ من الفضة، يلفّه شيفون أزرق ينسجم مع شريط العنق وحذائها العالي المصنوع من جلد الغزال وعظم العاج.

منذ اللحظة الأولى، هجست بأنها ملكة هذه الجزيرة.

كانت تستند إلى كرسي من خشب الصندل، مرصّع بأشرطة من الزبرجد واللؤلؤ والمرجان، تحيط به أزهار ملونة تتدرج من البنفسجي الغامق إلى الأحمر القاني، في تناغم بصري مدهش. تطوقها حزمة أنوار تنبعث من مصابيح صغيرة جدًا، تستمد طاقتها من جسدها، فتبدو كأنها لوحة جدارية أبدعها فنان عبقري، كلوحات دافنشي أو سلفادور دالي أو برناردو.

تلـك الأميـرة، بجاذبيتهـا وجلسـتها المهيبـة، تشـعل هواجسـي، وتغـرس رعشـة فـي أعمـاق فكـري، وعلـى لسـاني وأطرافـي. اضـطرب الفـؤاد مـن أول نظـرة، وانجـذب الفكـر إلـى سـحرها الأخّاذ، المنثور حولها وعلى كامل هيئتها.

سـحرها يشـع كينبـوع حـي، نـورٌ وجاذبيـة، كفتنـة أوراق الخريـف المنثـورة وسـط الغابـة، أو تلـك التـي تسـبح علـى شـواطئ هائمـة بـين أحضـان الرمـل، ترتـدي ثوبًـا بيجيـاً كـأن عاشـقًا يطـوّق حبيبتـه بدلال.

آه... إنهـا أحـلام الطفولـة التـي بزغـت مـن أعمـاق شخصـيتي وإرادتـي، تلـك التـي راودت مخيلتـي، وجعلتنـي أخطـط وأهـرب مـن واقـع أبـي، وأنسـج خيـوط إرهاصـاتي لأغـادر قريتـي نحـو المجهـول. تلـك الأميـرة، كأنهـا هـي مـن سـطّرت تلـك الأحـلام فـي مخيلتـي، هـي مـن كنـت أحلـم بهـا منـذ الصـغر. كـأن الله قـد وضـع ميزانًـا فـي ذهنـي، فخلـتُ أنسـج فيـه الأمنيـات كمـا أشـاء، وأرسـم لوحـة مسـتقبلي كمـا أهـوى، وجعـل كـل الأمـور كـأقلام ملونـة بـين يـدي، أسـطّر بهـا أفكـاري وهواجسـي علـى صـفحات الـذهن، لأسقي بها جذور الحلم وسواقيه كما أشاء.

كـأنَّ تلـك الفاتنـة هـي مـن فقـأت عـين أبـي، ليقسـو علـيّ، ويـدفعني للبحـث عنهـا بعيـدًا عـن عالمنـا الحقيقـي. كأنهـا هـي مـن رسـمت لوحـة المنطـاد فـي فكـري، لتكـون وسـيلتي للوصـول إليهـا. هـي مـن خطّـت لـي الطـرق والمـآرب التـي أوصـلتني إلـى غايـاتي، فـي جدارية بانورامية لحياتي.

تلك الإرهاصات المتقدة في ذهني، والمكفهرة في ذهن أبي، هي من دبّرتها. هي من فجّرت لغم التحدي والكراهة بيننا، لتشتعل فكرة المنطاد في مقابل تعنّت أبي، والجفوة التي طرأت بيننا، وحنقه وغضبه وقسوته. إنه مشهد دراماتيكي مدروس، أحداثه لم تكن وليدة المصادفة. لذا شعرتُ أنني مسيّر لا مخيّر، وأيقنت أن للأميرة يدًا في كل مشاكلي وعُقدي، وأن الله أراد لي ذلك.

الشك الذي كنت أظنه، لم يكن سوى قدرٍ أحاط بي. تلك المواقف هي التي ساقَتني إلى هنا، لأتذيل مذنب هالي في نهاية المطاف، فينقلني إلى هذا المجهول. الأحداث المبهمة قادتني إلى هنا، لأنعم بحسن وجمال الأميرة الأخّاذ، رغم غصّة الألم بفراق والدتي وشقيقتي بثينة.

الفتاة التي رسمتها في مخيلتي وأنا في العاشرة؛ هي ذاتها التي أراها الآن قبالتي، تجلس على الأريكة. كيف تطابق هذا الشبه عبر كل تلك السنين؟ ما اللغز الذي يجمعنا؟ هي الحورية التي حفرت ملامح وجهها ورشاقة قوامها على جدران قلبي وفكري. كثيرًا ما بحثتُ عن ملامحها في وجوه النساء، طرقت ألغاز الحياة، وفنون المسرح، وزهرية الأفكار العلمية التي طرحتها في القرية. كنت أراها هي اللغز بعينه، المتلألئ في فصوص الجواهر. وأيقنت أنها تحمل مفاتيح سعادتي ومستقبلي. أهجس بها، فهي نصفي الثاني الذي أبحث عنه وأبتغيه بين صور الحياة.

قادني القدر في تلك المتاهة، لأصل إلى الغاية المخفية في سطور الزمن. إنه القدر الذي جمعنا على ذات الحدث، وربما على ذات الهدف. قدر الأميرة، وسر الجزيرة، وقدري، وقدر والدي، هو قدر واحد، بجذر واحد، لكن بوجوه متعددة. كأنني من خلال الأميرة سأحظى بما تبقى من تلك الأحلام السادرة، التي سطرتها على مساحة الذهن وأنا طفل صغير لا يفقه أمور الدنيا.

أنستُ كثيرًا بتسميتها "الأميرة"، لأنها فعلاً تبدو أميرة في لباسها، ولأنها تطابق ما ذهبت إليه مخيلتي، ولأني لم أشهد فتنة بجمالها قط. أشعر بها سيدة الجزيرة، وحتماً ستكون بيدها مفاتيح سعدي وألغاز الجزيرة.

تراءت لي الجبال، والينابيع، والأنهار، والشلالات المتدلية من خزائن السماء، والطيور والورود الملونة، مسخرة من قبل الإله لإسعاد وخدمة تلك الأميرة القابعة على كرسيها. كأنها بوحدتها تناجي أحلامها، وكأنها خُلقت لتضفي سعادة على بقاع الجزيرة، شيء من روحها وفتنتها، ليلتقي مجراها بمجرى أشواقي وغاياتي.

كل الأجواء مهيأة لراحتها: النسائم، صفاء الجو، لون السماء الغريب، الفواكه المتنوعة، الخضار التي تملأ البقاع، السحر المنثور على سنام الجبال كالقطن، الروح الهائمة بين الأشجار الوارفة، والورود المسترسلة، رفراف الطيور، بهجة الأجواء، الظلال، الأضواء، القمم الشاهقة، البحيرة القزحية، الشلالات المتدفقة، الرمل المنبسط على الشاطئ... كل تلك الإيحاءات

مـن سـحر الطبيعـة تختنـق فـي سـحر وجاذبيـة تلـك الأميـرة، وكأنها تنتظر أن تُخرز فصوص المسبحة بإضافة الشاهد لها.

كـل شـيء يبعـث علـى التفـاؤل والخيـر، يغـدق بسـحر متجـدد سـرمدي مـع إطلالـة شـمس دافئـة. كـأن الطبيعـة اسـتقطبت سـناها وجمالهـا مـن لظـى هـذه الحوريـة التـي تعتصـر الجمـال برقـة أنوثتهـا. كـأن كـل مـا خلـق الله فـي هـذه الجزيـرة يرفـأ بسـحرٍ لإرضاء سرها، ويخضع لإرادتها.

مـا إن اقتربـت منهـا، حتـى طـرأت علـى وجههـا ابتسـامة شـفافة مليئـة بالرقـة، كأنهـا علمـت بوجـودي مـن زقزقـة الطيـور. ماجـت فـي وجههـا ابتسـامة كموجـة سـحر مرقـت علـى شـفتيها، كأنهـا لـم تُفاجـأ بوجـودي، كـأن الهدهـد سـرّها كمـا سـرّ النبـي سـليمان بمملكـة بلقـيس سـبأ. هجسـت بهـا، سـرت بوجـودي، فرحـة بلقـائي. فتلـك الزفـة التـي حظيـت بهـا مـن جمـع الطيـور، مـا هـي إلا إشـارة منهـا، أو رسـالة بعثتهـا للأميـرة. هكـذا فسـرت الحـدث، وهكـذا خُيّل إليّ المشهد.

مـا إن أرشـقتها وأسـرفت النظـر إليهـا، حتـى أسـتنار قـبس وجههـا كبـدر الـدجى. لمسـتُ الفرحـة تسـطع بـين عينيهـا، كأنهـا وجـدت ضـالتها. حـدجت إلـيّ بطـرف عينيهـا، نظـرة ذي عِلـق، نظـرة محـب واستحسـان. كهربـة شـطّت مـن عينيهـا لتكهـرب أوصـالي، أضـيئت ملامـح وجههـا، بضـيائه لامسـت حشـا الفـؤاد، وجزلـت عنـه أرقـه. التمسـت ذلـك التعبيـر البهـي فـي بشاشـة الوجـه، والسماحة في النظر، حتى هدأت حالتي، وخف اضطرابي.

مـن خـلال اهتمامهـا بـي، خمّنـت بأنهـا عطشـى لأنفـاس رجـل، لحديثـــه، لرفقتـــه، لطرافتـــه ومداعبتـــه، لحرارتـــه وقبلاتـــه وعواطفـه. هجسـت بهـا عطشـى للمسـة الحنـان، لوشوشـة الـود، لشـهقة الأشـواق، لغـنج ومحبـة، للاعـج يشـكم وحـدتها. كأنهـا لـم تلتقِ بشاب يبهج قلبها منذ أمد بعيد.

بترحابهـا، كأنهـا أزاحـت هالـة الحـزن عـن صـدري. بابتسـامتها، كأنهـا كشـطت وحشـة الظـلام والغربـة عـن قلبـي. فـي الحقيقـة، بـتُّ أنشـد لحـن حلمـي القـديم فـي أعمـاقي، أدركـتُ ذاتـي التائهـة فـي زحمـة الأفكـار، قبعـتْ علـى دكـة ذلـك القصـر، قطنـتْ فـي روح تلـك الفاتنـة، ركبـت مركبهـا، تلـك التـي غمرتنـي بعطفهـا وفتنتهـا ودلالها...

يا ترى؛ من أين أبدا خطوتي الأولى؟.....

كيف سأوفق ذاتي مع تلك الملكة؟.....

يـا تـرى؛ هـل غصـت قـدميَّ فـي وحـل عـذاب جديـد أم تفتحـت أبواب الأمل؟

هل أدركت الحلم والغاية؟...

كـأنَّ الحيـاة بالنسـبة إلـيَّ مـا هـي سـوى سلسـلة حلقـات مترابطـة مـن فـيض وعـذاب وأمـل، مـا ان أخـرج مـن حلقـة حتـى أدخـل

أخـرى أشـد منهـا وتـرا وتـأثرا وعقـدا.... ذلـك مـا كـان يـؤرقني وأنا أتقدم بخطواتي منها، لا أعلم ماذا خبأ القدر لذاتي البريئة.

10- رفقة الأميرة

صار لروتين الخجل في ذاتي شوكةً تغز مشاعري، تنأى بي عن نسائم اللقاء، وتنتبذ بذاتي كلما هممتُ أن أستنشق عبير أنثى أو أرتشف نخب حضورها، خاصةً إن كان اللقاء أول عهدٍ بها. أتقوقع في داخلي، أتحير في سلوكي، فما إن أقبل على الفتاة حتى ترتجف مشاعري، وتغصّ قدماي في وحل الرعشة، كأني طفلٌ يتهيب أولى خطواته، كوني لا أتقن أسلوبًا مرنًا ولا تلقائيًا لترويض هذا الكائن اللطيف، لقلة خبرتي وحياءٍ يلازمني كظلٍ لا يفارقني.

كنت فيما مضى شبه معزولٍ عن عالم الفتيات، ربما لقلة فرص الاختلاط بهن في قريتي ومدرستي. واليوم، أجدني أمام فاتنةٍ تفوق نساء الكون فتنةً، لا أدري كيف أبدأ معها المشوار. فمقومات الحسن والكمال التي تكتنزها تمنحها سلطانًا وهيبةً، تسكن نظراتها، وتنبض في جاذبيتها، تجعل اقتحام أسوارها بأشرعة التمني ضربًا من الوهم والخيال. لا بد من عملٍ جبار، من أساسٍ قوي يلفت انتباهها، يجعلني سيدًا مبجلاً في عينيها.

لطالما شعرت بعصف اللقاء الأول قبل أن أزجّ نفسي فيه، قبل أن أغوص في متاهة الفتنة وألتمس سحر الجمال، أتيه بين حدقات العيون الحادة والشفاه اللدنة، رغم وسامتي ورجاحة عقلي. بشرتي السمراء، التي طالما كانت موضع إعجاب، أضفت على ملامحي جاذبيةً أخاذة. كثيراتٌ تشبثن بي، ربما

لصغر سني آنذاك، أو لغنى والدي، لكني لم أكن ناضجًا بما يكفي لأبادل ميلهن بميل.

ورغم حداثة سني، إلا أني أتمتع ببهاءٍ وذكاء، وأناقةٍ في هندامي، ونظافةٍ في مظهري، وخشونةٍ في قوامي، وفطنة لا حدود لها تمنحني صورة رجولةٍ أعتز بها. ومع ذلك، أهجس بذاتٍ فقيرة، تنقصها الخبرة والتجربة في عالم النساء. أشعر بضعفٍ أمام الجميلات، ربما لشدة ولعي بهن، أو لاحترامي ومحبتي لهن. حين قابلتها، اهتزت ذاتي كعود قصبٍ أجوف، وجدتني هشًا أمام جبروت فتنتها.

لا أدري لمَ يصيبني ذلك الانكسار؟ لمَ ترتجف روحي وأنا أرتجي لقائها، ولا أحد يتبعنا أو ينصت لحديثنا؟ هل لشرارة الود المتقدة في فؤادي دورٌ في هذا الانقلاب الجسدي؟ أم لسلطان السحر والفتنة يدٌ في تشتيت فكري وتشليل لساني؟ أم هي عادةٌ متجذرةٌ في سلوكي، تقمصت طباعي وأزفت بهواني؟

ربما لأني أصغر منها سنًا وأقل تجربة. لكني كبرت، وبلغت، بل إنني بلغت في سنٍ مبكرة، منذ الرابعة عشرة، حين بدأت أتحسس رجولتي تضيق بي. فالبلوغ في نظري لا يُقاس بالعمر، بل بنضوج العقل وصفة التعقل. في تلك الفترة، كنت أفكر بالمرأة والجمال والعلاقات، وكان أبي يقسو علي ويبدد أفكاري.

أمـا الآن، فأشـعر أننـي تجـاوزت سـن البلـوغ، ولـي الحـق فـي عشـقها ومحاباتهـا، رغـم أنـي فـي العشـرين. لـذلك ينتـابني شـعورٌ بالضـعف والاضـطراب. قـد تـرى هـي الأمـر عاديًـا، روتينيًـا، لكـن كـل تلـك العلـل مغـروزةٌ فـي ذاتـي، أثـرت فـي سـلوكي وقراراتي.

ولكـي أفتـل ضـفيرة الحلـم الفتـي، كـان لا بـد مـن موقـد حـبٍ أذيـب عليـه مكعبـات ثلـوج الخجـل، لأحـرّك ذوائـب الأحاسـيس الراكـدة فـي جـداول فكـري، بفعـل الوحـدة والغربـة، أو بفعـل الخـوف والحيرة والمفاجأة.

قبـل أن أغلـق رتـاج الفكـر، لمحـت فـي عينيهـا قدحـة زنـادٍ شـطّت عـن لاحظهـا، بزغـت كشـهابٍ خـرّ فـي سـماء وجـدي، كأنهـا رمـت فـؤادي بسـهمٍ مـن لاحظهـا، فأصـابت مقتلـي. كأنهـا تحسسـت نـبض الجنـون الـدائر فـي فلـك ظنـي، البـائن فـي قـبس عينـي، المشـع كمصـابيح شـوقٍ فـي حيرتـي. فسّـرت ذبـذبات إشـارتي وحيرتـي كحالـةٍ إيجابيـة، كلَهفـة شـوقٍ ورجـاءٍ لمصـافحتها والتخاطر معها.

كأنهـا وضـعتني فـي دائـرة الهـدف، ورسـمت أمـام سـعيي خطوطًـا عريضـة مـن الحـظ، عـدّتها فرصـة سـانحة لنـا معًـا لنرتقـي نحـو الغايـة المنشـودة التـي جمعتنـا كرجـل وامـرأة. كأنهـا مهـدت الطريـق لإذابـة جليـد الغربـة والخجـل بيننـا، فهكـذا استشـعرت الموقـف، وهكـذا شـحنت قـدراتي. بـدا لـي أنهـا أرادت أن تجـرب حظهـا معـي، بعـد أن سـئمت الوحـدة المذلـة، فـامتزج حظهـا بحظي في بوتقة تجربة واحدة.

هكذا لمست الحالة من وجهة نظري، وهكذا فسّرت حركاتها. لقد أصبحتُ فعلاً ضمن قوس الهدف بالنسبة لها، وقد أكون الفريسة أو الضحية، أو الفارس الهمام الذي تتأمله. ربما أنجح في سعيي معها، فأكون السيد والملك. عليّ أن أحسن السلوك، وأستغل الزمن القادم لتقريب وجهات النظر، حتى تقتنع برجولتي.

وهي قابعة على كرسيها المرتفع، مثلتها بعشتار أو أفروديت، بلقيس أو سميراميس. المسألة متقلبة في ذهني، تتأرجح بين الحيرة والظن، وتغير دفة تفكيري. وإلا، فما معنى أن تكون تلك الفتاة الجميلة وحيدة الفكر والذات في جزيرة نائية، برفقة طائرة قديمة؟ من تكون؟ أهي من الإنس أم من الجن؟

لكنها لا تشبه الملوك قط، بل هي نسمة، تغريدة، صرخة في عالم الجمال، روح الجزيرة. لذا وصفتها بالقمة، وعليّ أن أصعد القمة لألتقي بها، بتأني.

الحلم الذي داهمني غدا عناقيد كروم تغريني، يتدلى من أبراج السعد، من فص ثغرها الهدل، من عطف نظراتها، من ألقها المراق، ومن عمق الصمت الهائم وهيامي بها. لم أعد أتمالك نفسي، وأنا أشهد في أنفاسها دفء العشق يتلألأ أمامي بفيض عاطفتي. ما فتئت تبرق في أجواء صمتي بسحرها المنثور، هي النغمة التي تحرك وتر إحساسي، هي الومضة التي تعبث بقلوب العشاق، هي الحيرة التي تأسر هواجسي.

وأنا في نشوة الفرح، أقترب من صرح شهرزاد، أو بلقيس، أو سميراميس، أو عشتار، أو فينوس... كل آلهة الحب والجمال اجتمعن في أنوثتها. كأنني أعيش في عالم غريب، في زمن ليس الزمن الذي أعرفه. ربما عاد بي الزمن لعصور السلاطين، أو تقدم بي لعصر الفنتازيا والخيال. لكنه حتمًا ليس زمني، لأن كل الأجواء من حولي أضحت غريبة، مصنوعة من وجس الخيال، إلا أنا، أدور بين تلك الأروقة كحقيقة.

بقيت في حيرة من أمري: من تكون تلك الأميرة الفاتنة؟ كيف وصلت إلى هنا؟ كيف أختلس تلك الابتسامة المنسلّة من ثغرها القرمزي؟ كيف أطمئنها بوجودي؟ كيف أقنعها بمحبتي؟ أسئلة تساقطت على فكري كأوراق الشجر، وبألوان مختلفة من واقع الحال والمصير.

امرأة تحمل في ثناياها أوصافًا خرافية، نور ينفث من مشكاة وجهها كأنه يضيء دجى عالمي المظلم. أشبهها في عالم النساء بحواري أهل الجنة، كما وعد الله بها المؤمنين. متربعة على عرش الفتنة، بكل ما لها من أوصاف وطلة.

لانشغالي بها، هجست بكيانها كوكبًا دريًا يدور في فضاء فكري، وتلك الهالة المنبعثة منها ما هي إلا وهج روحها، وسحرها المشع من مباهجها، كأنبلاج النور من بين ذرات الثلج حين تغازلها أشعة شمس الصباح.

تراءت لي، بحكم موقعها، كتلك القصص الشجية التي وصلتنا عن أسلافنا في العصور السحيقة، تفيض من جوارحها رنين

الأصالة وسكون المساء وألق الصبح. إنها فعلاً تشبه ملكات ألف ليلة وليلة، لما تحمل من عشق ينز من بين ثنايا شعرها كينابيع سحر متدفقة.

في البداية، تراءت لي خيالًا امتد عصفه لبطون الحكمة، ثم بانت لي كضوء يتراقص في إناء وجدي، ثم خلتها قصيدة غزل من وحي المعلقات. جذبتني بمفاتنها، بجمالها، بشاعريتها، بسلاستها وغموضها. نقلتني إلى وادي الأحلام، تراءت لي لغزًا يدور في أروقتي، وجدتها أعمق من وصف المتنبي، وأجدى من حكمة أرسطو، وأغزر من النظرية النسبية. إنها موجة تحمل كل ما يخص الذهن من فكرة، وفيض من لغز الحياة.

لن أستطيع أن أُختزل وصفها بكلمات بسيط، إنها نهرٍ جارٍ، تتجدد فيها الفتنة والألق باللحظة، بتغير الموقع، بالحركة البسيطة، بالكلمة إذا ما تفوهت بها، أليس ذلك عجز وإعجاز في الخلق ابدا، أنما حالة متجددة كصفة الكون.

رفعت رأسها لتسقط نظرها على أدمة وجهي، تجمدت العروق في جسدي، تعثرت القدم بمحراب ذلك السحر.. وقبل أن أدخل فضاء المتاهة والهيام، أخذت بيدي لأرسوا على مفاتن سرها، شفطت عن ذاتي قلقي وارتعاشي. بتلك النظرة العطوفة رفعت عن كاهلي ارتباكي، كأني فاجأتها في الجزيرة، ربما ما كانت تتوقع سني وشبابي.

مـا إن لاحـت هـواني وارتبـاكي، حتـى مـدّت علـى شـفتيها ابتسـامة هادئـــة، جزلـــت عنـــي خـــوفي وارتبـــاكي، وكشـــطت ضـــعفي والتباســـي. تلـــك الابتســـامة، التـــي ســـبحت فـــي فضـــاء وجههـــا الســـاحر كفراشـــة تســـتقطب أزاهيـــر ملامحهـــا، كانـــت تعبيـــرًا عـــن ســـعادتها، خرجـــت مـــن ثغرهـــا بيضـــاء، منتشـــية بمحاســـن الفـــتن وبياض الأسنان اللؤلؤية.

بـــات وجههـــا يبتســـم، عيناهـــا، وجنتاهـــا، جبهتهـــا، شـــعرها الـــذهبي المهفهـــف، وأنفهـــا المشـــع بالكبريـــاء، كلهـــم شـــاركوا فـــي تلـــك الابتسـامة التـي سـاحت علـى ملامحهـا كنـدى الصـباح فـوق أوراق الشـجر. كأنهـا فرشـت بسـاط النـور أمـامي، فتحولـت الرغبـة فـي داخلـي مـن سـكون إلـى اهتـزاز، مـن هـدوء إلـى جنـون، وكأنهـا تحولـت فـي عـالمي مـن درة سـاكنة إلـى بـدر يـتلألأ فـي صـحنه الدرر.

مـا إن لمسـت انبهـاري بهـا، حتـى عضّـت علـى العنـاب، فتـدفق الزبـد فـوق شـفتيها المـورّدتين، لتوقـد أزاهيـر الخـد بـالفتن، وتنبثـق لآلـئ الخجـل والحيـاء، تـبهج ملامحهـا وتسـتكين فـي بريـق عينيهـا كمصـابيح تتطـاير منهـا الشـعل. غسـلت وجههـا البشـوش بسـطوع السحر وفيض النظرات.

أسـرت هواجسـي، وأودعتنـي سـجن بريـق عينيهـا ورقـة شـفتيها الكرزيـة، كأنهـا اسـتقطبت لـون قزحيـة العـين مـن ورق الشـجر. نطقـت بلسـان يبعثـر الـدرر، وبصـوت كهـديل الكـروان، أغـدقتني بكلمات الترحاب والكرم.

كانت دهشتها بلقائي قد جعلتها تكشف عن جزء من ساقها، وفي التفاتة خاطفة، أشاحت عن دفء الشوق المكنون تحت أكمام صدرها. انفرج الثوب عن جزء من قوس النهد، بأزرار صفراء ناعمة، كأنها كشفت عن قنديل يضيء باللهب. بان جزء من صدرها المكور بألق، يترقرق سحرًا مع موجات النسيم، كأنهما برتقالتان تدلّتا من غصن الشوق.

عندها، سام دخان الشوق في خافقي، غيرةً ما تملكتني وأنا مبهور بقوامها الرشيق، حتى بتّ أحسد الطيور المرافقة، والنسيم الذي يهف على رقبتها وثنايا شعرها، والحزام الفضي الذي يطوّق خاصرتها كعاشق ملهوف.

أضحى الود شاخصًا في رجائي، كمنفاخ حداد لا يهدأ، كل لحظة يدفق لهب الشوق في خافقي، يشحذ تيم الهوى في الفؤاد، وتغدو جمرات الود والصبر تتقد في أعماقي بهوس الظن، وبعبق يقين شاخص أمامي.

تقدّمت منها بخطوات ملؤها الوجس والذهول؛ الوجس من مجازفة تقبيلها واحتضانها، والذهول من شموخ هذا الصرح المزدان بالثقة. فإن جازفت، فلربما لن أحتمل عصف ردة فعلها.

لا أعرف كيف أواجه أعاصير الشبق الهائجة في صدري، والتي قد تؤدي بي إلى حيث لا أفيق من صدمتي القادمة. كنت أشعر بالوجس يصرعني، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي،

وأخشى فشل ترويض هذه الفاتنة، لضعف إمكاناتي في تدوير الدفة وسط مفاجآت غير مدروسة.

دبّت الرعشة في أوصالي، بكل ما للشك من سلطان وهيبة وخيفة... لكني لم أنسَ رحمة الله، فمددت يدي أصافحها، كأني لمست يدًا من ورد القديفة، لطراوتها غصّت أناملي في راحتها. سلمت عليها بسم الله، علّني أجد في صدرها رقة وحنانًا يميس الفؤاد.

تبسّمت لي، ونطقت والهوى يهف شعرها الذهبي، صدحت مرحبة بي ككروان يهدل بصوتها الرخيم، فانتبر شعر رأسي، وارتعشت أوصالي، وتفصّد جبيني بالعرق.

قالت: – أهلاً بك، تفضل، اجلس هنا.

رحّبت بي! طلبت مني أن أجلس على مقعد يركن قبالتها، مشابه لمقعدها. ما أدهشني أنها تعرف العربية. هجست بنعومة المقعد وأبهته، وكأني سلطان زماني، هجست بولادة جديدة جددت ذاتي بذاتي. بجلوسي، نسيت شخصيتي الآنفة، شعرت بأني شهريار في أعماقي، كأن الكرسي قد بثّ فيّ طاقة من سحره، فذهب الوجس عن فكري، وأصبحت بقدرة جديدة، بعقلية مختلفة، وبثقة مطلقة لم أشعر بها من قبل.

إن كان الجلوس على كرسيٍ قد قلب ميزان عقلي، فما بالي إذا ما تزوجتها ونمت في سريرها؟ لقد انحدر فكري سريعًا نحو أنوثتها ورقتها، حتى تأملت ذاتي أن تكون رداءها وتاجًا

يبجلهـا، لأحتضـن تلـك الأنوثـة بشـيء مـن الغـنج والحنـان. تخضّـب الـدم فـي عروقـي، وهجسـت بمراكـز الغريـزة تـرتعش في أماكنها.

حينها، قلت لها بتعجب...

- ما شاء الله، أنك تتكلمين العربية.
- أنا عربية الأصل يا.....
- سمير أسمي سمير
- ما شاء الله يا سمير أنت سمير وسمير الوجه، وسيم
- هذا من ذوقك..
- سأخبرك يا سمير بقصتي بعد أن استمع لقصتك...
- وهو كذلك وأنا في شوق للتعرف عليك.

تحـدثت إلـيّ حـديث الشـعراء، كمـا تغـرد البلابـل، كمـا يهمـس الشـوق حـين يطلـب الشـفاء. حـديث الفراشـة للزهـرة، بـل حـديث الزهـرة لـدفء الشـمس، حـديث طيـر مهـاجر لواحـةٍ فـي قلـب الصحراء.

بلطفهـا وثنائهـا، أزالـت الكـدر عـن متنـي، وبـددت الـوجس والغشـاوة عـن قلبـي. باتـت الملامـح أكثـر وضـوحًا ونضـوجًا ممـا كنـت أتصـورها. رأيـت فـي تعـابير وجههـا خطـوط الوحـدة، أعمـق ممـا تعـرّ فـي وجهـي، فتبادلنـا النظـرات، وتلاطمـت أمـواج الأحـلام علـى شـواطئ الرجـاء. كأنهـا بسـرحانها تعاتـب

إرهاصات زمنٍ غابر، وكأنها حين رأتني طوت رغباتها السالفة في سجل النسيان.

ربما عانت طويلًا من سجن الوحدة، ذلك ما استنتجته من خبب الكلام الذي دار بيننا، حين اختزلت لي سيرة حياتها، واختزلت لها سيرة حياتي.

سألتني عن أصلي، من أكون؟ وكيف وصلت إلى هذه الجزيرة؟ فحدثتها عن أحلامي، وعن همجية أبي وقسوته التي لا مبرر لها. فقالت لي:

ـــ ما كان لك أن تترك أمك وتعصي أباك.

فاشتد الشجن في صدري بذكر أمي، وبدت ملامح الحزن تكمد مقلتي، فذرفت بعض الدمعات التي عجزت عن حبسها. قلت لها:...

ـــ حاولت كثيرًا التأقلم معه، لكن عقليته قديمة، متعجرفة، لا يريد أن ينسلخ منها، كما أرادني أن أتطبع بطباعه. لا يعرف سوى لغة القسوة. لم أحتمل بخله ولا شدته. كان يستعملني كأجير لديه كي يوفر أجرة عامل إضافي لنقل جلود البقر من المزرعة إلى المصنع. لن أنسى ذلك اليوم الماطر، حين جرفت السيول الوديان والشوارع، وأصر على زجي في العمل. الأرض كانت طينية زلقة، ومع ذلك لم يكف عن تعنيفي. تبللت ملابسي، واخترق البرد أوصالي، ولازمتني رجفة وقشعريرة لأسبوعٍ كامل وأنا طريح الفراش. منذ ذلك

اليـوم، بـدأت أعصـي أوامـره، خاصـة بعـد أن طلـق أمـي، التـي كانت تدافع عني وتثير المشاكل معه بسبب قسوته.

فقالت لي:

ـــ إذا حسنًا فعلت، هنا ستجد راحتك الدائمة.

قلت لها:

ـــ لكـن أيـن نحـن مـن الكـون؟ أشـعر وكـأنني خرجـت عـن المجموعة الشمسية.

فأجابت:

ـــ لا تسـتعجل، سـتعرف كـل شـيء. لا أعـرف اسـمًا لمجرتنـا ولا لكوكبنـا، لكـن يمكننـي تحديـد موقعنـا. رحلتـي لا تختلـف كثيـرًا عـن رحلتـك، لكنهـا كانـت قبـل زمنـك بكثيـر. أنـت جئـت بمنطاد من بغداد، وأنا جئت بطائرة من الرباط سنة 1910.

أنـا لبنـى، ابنـة ملـك المغـرب مـولاي عبـد الملـك. كنـت وخطيبـي نتجـول بالطـائرة فـوق المحـيط الأطلسـي، ولـم نعلـم شـيئًا عـن العصـف الـذي أغشـانا وأعمانـا، ولفنـا فـي عباءتـه حتـى فقـدنا السـيطرة علـى الطـائرة، ثـم فقـدنا الـوعي، حتـى أوصـلنا ذلـك العصف إلى هنا.

كـان ذلـك منـذ زمـنٍ طويـل، لأن الـزمن هنـا يختلـف عـن زمـن الأرض، بـل هـو متوقـف تمامًـا، لـذا ضـاعت علـيّ الحسـابات الدقيقة التي نحسب بها الزمن الأرضي.

قلت لها:

ـــ إذا رجعنا إلى دورة مذنب هالي، الذي يكمل دورته كل ستة وسبعين سنة، فهذا يعني أنك وصلتِ هنا قبل ستة وسبعين عامًا، وكان عمرك حينها اثنين وعشرين عامًا، أي أن عمرك الآن بتوقيت الأرض ثمانية وتسعين عامًا.

فقالت:

ـــ أتوقع ذلك، لكني فقدت الحسابات. لا أعلم إن كان مذنب هالي هو من جرنا خلفه أم مذنب آخر. لا تشغل بالك بهذا الأمر، فأنا ما زلت شابة، ولن أشيب أبدًا، وأنت كذلك، لأن الزمن هنا متوقف.

11- جولة في البحر والقصر

بعد أن تعرفت إليّ واطمأنت، وبعد استراحة لا بأس بها، أخذت بيدي في جولةٍ للترفيه عن النفس، عرّفتني خلالها على أسرار الجزيرة ومعالمها. لتقارب عمرينا - فأنا في العشرين، وهي في الثانية والعشرين - كنت أهجس بأنها تصغرني سنًا، رغم أن عمرها الأرضي يبلغ ثمانية وتسعين عامًا، وقد توقف عند تلك العتبة منذ زمن بعيد.

رافقتها، فشعرت بها فرحة جذلى بلقائي، كأنها عثرت على خاتمٍ بنصرها الضائع، لتجلي عن ذهنها غبار الوحدة الذي عطن أرواحنا. وما إن أخذت بيدي، حتى شعرت بمنابت الشوق تخضب في راحتي، فاحتضنتني برقتها، وصبّت زيت عطفها في بوتقة عاطفتي. صرت أمشي معها كطفلٍ يحتضن أمه، رعشةٌ سرت بأوصالي، جعلتني أشعر بحبورٍ وسعادةٍ منقطعة النظير.

ذلك السر من البهجة انتقل عبر شراييني وأوردتي، شحنني بطاقة الفرح والمسرّة والنشوة والهناء. صار الدم يتدفق في عروقي أسرع من المعتاد، ونبضات الفؤاد استشاطت ألقًا ورخاءً بشكل غير طبيعي، وسط دهشتي وانبهاري بفتنتها وسلوكها الراقي معي.

وسط هيامي بها، زاد اهتمامها بي. كانت تمشي بخطواتٍ غاية في الرقة، كريشةٍ هائمة في هواءٍ طلق، لا تؤثر الأرض بضغط قدميها، كأنها ترتدي حذاءً إسفنجيًا يرفعها عن الأرض. لم يكن ذاك الحذاء الفضي ذو النقوش السوداء والكعب العاجي سوى زينةٍ لا تُثقل الأرض. كانت ترمي خطواتها بحنانٍ ورفق، حتى أنني لم أسمع لصوت حافر القدم هسيسًا.

قادتني برفق نحو قاربٍ ورديٍ خاصٍ بها، كطفلٍ تجذبه المباهج والألوان، جذبتني لقارب الغنج والشوق، لأبحر معها في شواطئ البحيرة. تملكني اضطرابٌ غريب، وجدت نفسي في حيرةٍ من مواجهتها، لا أعرف كيف أتصرف أو أتعامل معها، تنقصني الخبرة والتجربة. كنت في تلك اللحظة منقسم الشخصية، تائه السلوك، أعيش اللحظة بين تكويني الطفولي وتطلعي الرجولي، بين أن أكون طفلها المدلل وفتاها العاشق، بين الرعونة التي أود ممارستها معها، وبين الكياسة والاحترام وزرع الثقة في النفس، وبين شعشعة الشوق وعبث الطفولة.

هكذا وجدت التشتت يسيطر على مرافق السلوك، تداخلت في ذهني خيوط تلك العقد، بين ظنٍ وكياسةٍ مأمولة، وعبثٍ أرتجيه.

حين زاغت عيناي في أجواء مفاتنها، راغت الروح في شواطئ بشرتها، وأضحى الفؤاد يصدح ككروان المساء يغرد على شجرة المحاسن. يممت بمناجاتي ونجواي نحو حلو المحاسن، وددت أن أصلي صلاة نافلة على سحر قوامها،

وروعة الصدر والشفة، حيث لا تزال ثمار الشوق ترتع في غبش ألقها، لم تنضج أكولها بعد.

تمنيت أن أداعبها، أن أضمها إلى صدري تحت تلك الأجواء الساحرة، أن أغرق أناملي في ثنايا شعرها الأصهب، أن أذوب في ريان صدرها كفص ثلج، لأتحسس مرافئ الدفء المدفونة في ثناياها، أن أسيح على طراوة بشرتها كقطرة ندى، أن أقبل ناصع الخد، وأرطب الشفة بالقبل، أن أتحسس نبضات فؤادها لأدرك سره وغايته.

استقللنا قاربها الوردي، وبدأت تجذف المياه بمجذافٍ فسفوري، يترك خلفه أمواجًا رقيقة ترسم دوائر محبة على مدى العين. رافقتنا أسماكٌ ملونة، جذلى فرحة، تنط على القارب كأنها تزف موكب عرسٍ بهيج، تختلج بين الغطس والطفو فوق سطح الماء.

فيما الطيور الدائرة فوق رؤوسنا - من نورسٍ وحمامٍ ونوء - تهدل وتغرد مبشرةً بوجودنا، وأخرى تعوم بصمتٍ إلى جوارنا من بطٍ ووزٍ وأبي قردان، في زفةٍ قلّ نظيرها.

لا أستطيع أن أصف المشهد بكلماتٍ مقيدة المعنى، فكل الكلمات تبدو قاصرة عن وصف حقيقة اللحظة. لا أستطيع أن أملي بحر الشوق بكلماتٍ جزلة ومجرورة لمعناها، فالأميرة لبنى بكيانها وعالمها تعتبر خارج المألوف تمامًا، غائرة في سر الجنات التي نتوق إليها.

فـي لحظـة مـن السـكون المطلـق، حـين خمـدت الأصـوات وتوقفـت الريـــاح عـــن همســـها، بـــدأت تعـــزف ســـمفونيتها بصـــوتها الفيــروزي، رقراقًــا كجــدول مــاء فــي حضــن الجبــل. هــدأت الطيــور عــن زقزقتهــا، واســتكانت الجزيــرة برمتهــا، كــأن كــل شــيء فيهــا قــد انصــت لعذوبــة صــوتها، حتــى الــورود راحــت تتــراقص مــع النســائم علــى شــدوها العــذب، وهــي تغنــي برقــة الموج المتدفق خلفنا، بكلمات تعصر الشوق حبًا وشغافًا:..

في لحظاتِ الأُنسِ والوِدادْ

غمرَ الشوقُ الفؤادْ

يا ربَّ صُنْ حلمَ الميعادْ

اكتوى الفؤادُ بنارِ العناد

يا مَن سجرتَ الهوى

صُنْ لي رجائي والهوى

القلبُ غصَّ بمن غوى

ارتوى حنينا رغم البعاد

الظنُّ شاءَ، ماجَ اليقينْ

الشوقُ فاضَ بسرِّ الحنينْ

العينُ جازتْ كلَّ السنينْ

فعادَ الرجاء إلى المهادْ

***

تبادلنا رشقات الماء، تبللت ثيابنا، ضحكنا، مرحنا، كأننا نغسل أرواحنا من غبار الأيام. وبعد ساعة من البهجة عدنا من حيث انطلقنا، متجهين إلى باحة القصر، ترافقنا لمسة الود والمسرة الظاهرة على وجوهنا.

وفي طريق العودة، وبين هدير المجذاف وهمس الموج، نظرت إليّ وقالت بنبرة حانية ممزوجة بالتحذير:...

"اعتبر هذه الجزيرة مملكتك، بشرط أن لا تقتل طيرًا، ولا تصطاد سمكة أو فراشة، ولا تقطع زهرة أو شجرة. إنها ملك الطبيعة، فإن غضبت فلن تهدأ بعدها إطلاقًا."

شكرتها على حسن الاستقبال، وعلى جولتها وضيافتها وكرمها ونصحها. كانت الشمس قد تجلدت في فج الغروب، فعرجنا عائدين إلى القصر الزاهي، يطل على البحيرة كتاج يرصع رأسها، يلمع في الأفق كجوهرة خالدة.

كلما اقتربنا خطوة، بدت مباهج القصر تتضح لي أكثر، بناؤه ينطق بالغرابة والعجب، كأنه جنائن بابل المعلقة. يستند على أعمدة عريضة مذهبة، تحيط به تلول على شكل قبب صغيرة

مـن الجـانبين، أشـبه بضـفيرتين تلتقيـان بقمـة شـاهقة، لتتصـل عـن بعد بقبة القصر، مكونة عقدة أشبه بعقدة الضفيرة.

التلـول مزدانـة بأشـجار الأرز ذات الأوراق العريضـة، مسـطرة علـى السـفح كأنهـا موجـة خضـراء تنحـدر برفـق، فيمـا يبـان القصـر وسـط تلـك الخضـرة أشـبه بسـفينة عملاقـة تشـق أمواجًـا من التلول والأشجار الباسقة.

يوسـط القصـر بـاب كبيـر ذو مصـراعين مـن خشـب السـدر، نقشـت عليـه صـورة طـائر الطـاووس بألوانـه البهيجـة، فيمـا السـلم الحجـري المـؤدي إلـى البـاب منقـوش علـى أعمـدة دربزينـه ثعبـان بلـون الحجـر الفضـي، يلتـف كأنمـا يحـرس الطريـق. وعلـى محـراب القصـر تمثـالان مـن الحجـر يمـثلان أسـدين، دلالـة علـى مكانة الأميرة وهيبتها.

بـدأنا نصـعد السـلم خطـوة بخطـوة، تـراءى لـي كأنـه زقـورة أور السـومرية، شـامخًا ومهيبًـا. تمعنـت فـي النقـوش المنحوتـة علـى السـلم والبـاب، فالثعبـان رمـز للقـوة والسـحر، والأسـد للشـجاعة والبـأس. لاحظـت أن جلـد الأسـد يتفاعـل مـع أشـعة الشـمس، فيغدو لونـه ذهبيًـا عـن بعـد، كـأن المـادة التـي صُـنع منهـا نـوع مـن الكرافـت القـادر علـى امتصـاص الضـوء وانعكاسـه، فتبـدو التماثيل وكأنها تنبض بالحياة..

فـي دخولنـا باحـة القصـر فتحـت أمامنـا صـالة كبيـرة دائريـة الشكل بقطـر خمسـين متـرا. جلسـنا علـى أريكـة مـن مرمـر مغطـاة بـريش الحَمـام، مركونـة تحـت شـرفة كبيـرة تشـرف علـى

البحيـرة، تقابلهـا صـورة جداريـة، بانوراما تمثـل الطبيعـة الخلابـة، شـيء مـن واقـع الجزيـرة. إلـى جانـب الشـرفة توجـد أرجوحـة أرجوانيـة متعلقـة بسـقف الصـالة مـن خـزف الحجـر المرقـع بالتوبـاز والعقيـق الأحمـر، توسـط الصـالة ثريـا كبيـرة مخروطيـة متدليـة مـن مركـز القبـة، مزدانـة بكريسـتال لامـع، يشع منها نور يبهج الجدران المحيطة بها...

بمجـرد أن تـنفخ علـى الثريـا بزفيـر فمهـا، تتـوهج الثريـا وتتـألق إشعاعا وبهاءً.

جـذبتنا السـكينة إلـى إلهـام الحـديث الشـيق عمـا سـبق مـن محطـات العمـر، أسـهبنا كثيـرا، حتـى أمسـكتْ بطـرف الخـيط؛ لأقطـف مـن غصـن الحـديث ثمـرة نضـجها، تلـك التـي لخصـت فيهـا أوضـاعها مـع حبيبهـا الأميـر الغائـب، بعـد أن غـرق مركبـه وهـو يصـارع أمـواج إعصـار شـبيه بإعصـار تسـونامي الشـديد، كـان قـد ضـرب عـرض البحـر وهـزَّ الجزيـرة برمتهـا وذلـك حـين كـان فـي استطلاع فـي وسـط البحـر. مـن حينهـا ومنـذ قرابـة سـنتين بتقـويم الأرض؛ لـم يعـد لـه خبـرا، كـان قـد أشـرف علـى بنـاء القصر والقبة الفلكية، لقد كان مهندسا بارعا حسب وصفها.

رغـم الـزمن؛ لازالـت تتأمـل رجوعـه، علـى الـرغم مـن أنهـا قـد نسـت ملامـح وجهـه تحـت وطـأة الوحـدة اللعينـة، لكنهـا مؤمنـة بمـا يـوحي إليهـا قلبهـا مـن أمـل. يـا تـرى؛ هـل سـيعود كمـا تتأمـل؟ ألسـتُ أنـا ذاتـه؟ عـدت بـروح جديـدة، وبملامـح جديـدة، ألا يكفـي ذلك؟

دارت في راسي مجموعة من الأفكار، سادها الأنانية المتفجرة في أعماقي، جعلتني أنسى ذاتي الحقيقية لألهث خلف الحلم المتقد، أود أن أشد وثاق الأميرة بوثاقي، لترى كم هو كبير فيَّ حظها.

أصبح مبدأ الأنا غاية في النفس، أشرع إلى قدح سراجه، ليت الوسائل ترضي غايتي، لأشبع غريزتي من سرها وفيضها، لأمحي عن حدقي صور الطفولة المرة، عسى أن استكين والحق ذاتي في جفن الاميرة، في نيتها وغايتها والحقيقة. بت ابحث عن الرغبة الجامحة، عن صيغة لغز، صيغة أقناع ارضي به ذاتها طالما الود يحقق مآرب الطرفين، عسى أصل لنقطة تجاذب بين القطبين.

تلك هي نظرية مكيافلي الغاية تبرر الوسيلة التي لا أأمن بها قط، ولكن مع فيض غريزتي ومع رغبتي الجامحة بفرث غريزتي في مفاتنها؛ صرت أشتاق إلى الغاية ومبدأ تبرير الوسيلة. حينها كرهت نفسي جدا، لأني التمست حجم أنانيتي، وعرفت بأني مجرد وهم وركوة في الحَدَثْ، ليس رجل مبدأ مثلما كنت أصف نفسي، لقد كسرتني تلك الجميلة بفرط حسنها، جعلتني أفرغ كل ما في جعبي من غراء السرجين في دروب سعيي.

رغم أني لا أؤمن بها، إلا أنني وجدتها مصدر إلهامٍ عذب، أستضيء به لأدرك مأربي، وأخمد به نار شبقي ووحدتي اللعينة التي باتت تنهشني وتنهشها بذات الحدة. فالإنسان كائنٌ غريب، يلوّن الوقائع ويؤولها وفق هواه ومصلحته، حتى يبلغ

غاياتـه، إلا مـن رحـم ربـي. وأحسـب أن ذاتـي ليسـت مـن ذلـك القليل النادر.

مـا جعلنـي أنحـرف عـن مبـادئي هـو ذلـك الإحسـاس القـاتم بالوحـدة مـن جهـة، وتعلقـي بتلـك الحوريـة مـن جهـة أخـرى. أُهَجِّـس بالحيـاة، فـلا أرى لهـا معنـى دون امـرأة عاشـقة، فكيـف إذا كانـت تلـك المـرأة هـي الأميـرة لبنـى ذاتهـا؟! ذلـك مـا دفعنـي إلـى التمسـك بنظريـة جديـدة، فصـلتُ أسسـها علـى مقـاس مزاجـي، وغـايتي، وعقلي الثري.

بـدأت شـتلات الأنـا تنمـو فـي أعمـاقي تحـت وطـأة الخـوف مـن المجهـول، مـن ظـرفٍ لا يحتمـل التأويـل، ومـن هـاجس الفشـل الـذي يطـاردني كظـلٍ ثقيـل، يرعبنـي ويتبعنـي كعـدوٍ لا يكـل. يراودنـي هـاجسٌ دائـم بـأن أميـرًا آخـر قـد يبـزغ فـي حياتهـا، أو أن أميرهـا الغائـب قـد يعـود فـي أي لحظـة، ليزيحنـي مـن سـاحة المنافسة.

خـلال مكوثنـا القصـير فـي القصـر، وبالـذات فـي باحتـه، اسـتلهمت مفـاتن الشـوق والألـق مـن جمـال البنـاء وتنظيمـه، ومـن اللوحـات المعلقـة علـى جدرانـه. أبحـرت فـي بحـر الأحـلام، حتـى تشـبعت خـواطري بصـورٍ راقيـة، تنضـح بـالتعبير والجمـال، تزيـد الخيـال عمقًا، وتزيد الجمال سحرًا وفتنة.

أنـارت رقـائق الشـوق بشـفافية آسـرة مـن ثنايـا حسـنها، حـين جابـت أروقـة القصـر السـاحر بخطـوات الهيـام، بـدت لـي كحمامـةٍ تخـبّ بـين الأروقـة، كعارضـةٍ فـي إطلالـةٍ مبهـرة، أوقـدت شـرارة الحلـم

القديم في جوارحي، وراحت تنطّ على صرح خواطري، تخطّ ألقها بنار الوجد والاشتياق. بتُّ أتأملها برغبةٍ جامحة، بعد أن عرفتُ قصة الأمير الغائب، داعيًا الله أن يكتب لي التوفيق معها.

ما الذي يمنع زواجي منها؟ لا شيء. ما الذي يحول بين رغبتي وأنوثتها؟ لا شيء. "لا شيء" هي القصة التي تحرضني على اقتحام عالمها، المجون فيه ممزوجٌ بجنونٍ وعبوديةٍ لفتنتها. "لا شيء" تعني لي كل شيء، تعني الاندفاع، والتحكم بمجريات الأمور، والاستعجال قبل أن ينفرط عقدها، وأصبح في خبر كان.

لا ينقصني لتجاوز الحواجز سوى فيض يقينٍ أمتطيه، ولسعة جرأةٍ أوشم بها ذاتي، أتشبث بها. أُهَجِّس بذاتي قريبةً من قرص الشمس، من القمة، ضاقت المسافة بيني وبينها حتى التماس، فما بقي إلا إعلان التحدي والظفر بالحلم.

لقد أصبحتُ قريبًا من حاجز سورها الأخير، ربما أقرب إليها من حبل الوريد. لو تحققت أمنيتي وتزوجتها، أكون قد ظفرت بأول الأحلام التي راودتني، وسألحق بها بقية أحلامي، أحقق جُلّ أمنيات الطفولة، وأكون أسعد رجلٍ في العالم. حينها، سأبغض أبي كما أبغضَ أمي.

لكن كيف سيسمع أبي بأخباري؟

أين أنا من خريطة الكون؟

أهجس بذرات العشق، قد تخطيتُ همسات النظر، صارت تميس جزيئات القلب، مالت إلى لمس مفاتن الود في منابع الشهوة، إلى الإبحار في محيط الصمت الدائر في ذهنها، إلى الولوج في مرفأ الهوس، إلى دغدغة الرغبة الملحة في الفكر وشغاف القلب، إلى تأمل نجمة السعد عبر المساءات الطويلة، تلك التي صار نورها ينفذ من منافذ النجوى الغائرة في نظرات عينيها، تلك السعادة التي نبحث عنها معًا دون أن نطولها، وهي ماثلة بين أيادينا، نستطيع أن نطاوعها بأناملنا كيفما نشاء.

كل شيء فيها يشتط بانماز واضح، تهجس بالنور القابع في وجهها، يفيض بالجاذبية كلون الورد وعبقه، كأني بها تجلي غبار الهم عن القلب كلما نظرتُ إلى حلو محاسنها، مثلما تمحى الذنوب بالتوبى، هكذا تستشف ذاتي، هكذا تمحي ذلك الأرق عن معالمي ومعالمها. إنها نعمة، ينبغي أن أتمسك بها، هي باكورة المستقبل التي أتوكأ عليها، هي الذروة التي أبغي تسلقها.

لكن كيف السبيل إلى فك خيوط العقدة المبرمة بأحكام حول مصير الأمير الغائب؟ إنها المعضلة؛ قد أحتاج إلى بعض المكر والدهاء كي تستميل لقدري، لا بد من فكرة لامعة تكون بمثابة المقص، أقطع به شريط الفرج والتآزر والاندماج فيما بيننا، نقطع به خيوط العقد المقيدة لحركتنا...

خلال حديثنا، سألتها عن الجزيرة؛ أهي جزيرة مهجورة؟ كيف وصلتِ إلى هنا؟ ما قصة القبة الزرقاء المبنية إلى جانب

القصـر؟ حيـث دارت تلـك الأسـئلة فـي ذهنـي لأعـرف شـيئًا عنهـا. قالت:

- أمـا بالنسـبة للقبـة الزرقـاء، فهـي قبـة فلكيـة، سـأطلعك عليهـا، ولكـن أجـواء اليـوم ملبـدة بـالغيوم، فـلا تكـون الرؤيـا واضـحة فيهـا، لـذا نؤجـل الفكـرة لأجـل قـادم. أمـا إنشاؤها والقصر، فكان للأمير بصمة في تنفيذها.

أمـا بالنسـبة للجزيـرة، فهـي مقطنـة مـن قبـل أقـوام يختلفـون عنـا شـكلًا وأبـدانًا. أنظـر إلـى تلـك الكـور فـي قمـم الجبـال وسـفوحها، حيـث يقطنـون فيهـا. تختلـف أشـكالهم وهيـاكلهم عنـا، لهـم آذان كبيـرة كـآذان الحميـر، وخياشـيم مفلطحـة كخشـم القـرد، قصـار القامـة، كـانوا قـد شـاركوا الأميـر فـي بنـاء القصـر والقبـة، حيـث يتميـزون بقـوة عضلية رهيبة.

أمـا كيـف وصـلتُ إلـى هنـا، فأنهـا قصـة عجيبـة تشـبه قصـتك بالضـبط. مثلمـا أسـلفت؛ كنـتُ وحبيبـي الأميـر نتجـول فـي الطـائرة قبـل زواجنـا بيـوم، ومـا أن طفنـا فـي أجـواء الفضـاء كالعقـاب علـى ارتفـاع شـاهق، حتـى افتقـدنا السـيطرة علـى الطـائرة علـى حـين غفلـة، بعـد أن لفتنـا دوامـة ريـح قويـة، وقبـل أن نفتقـد وعينـا، هجسـتُ بأننـا نبتعـد عـن الأرض، وأننـا نسـير خلـف كـرة ناريـة تتحـرك بسـرعة رهيبـة. لا أدري كـم بقينـا فـي ظرفنـا فاقـدي الـوعي، حتـى هجسـنا بالطـائرة بـدأت تأخـذ مجالهـا وهـي تـدور حـول الجزيـرة وكـأن شـيئًا لـم يكـن. كـان ذلـك عـام 1910م، حينهـا أدركنـا بأننـا نطيـر فـي أجـواء ليسـت

أجـواء الأرض، فتمكنـا مـن السـيطرة عليهـا ومـن ثـم الهبـوط علـى شـاطئ البحيـرة قـرب المنتجـع الرملـي للجهـة الجنوبيـة... والميـزة فـي هـذه الجزيـرة بـأن الـزمن متوقـف، كـل شـيء فيهـا يبقـى علـى مـا هـو عليـه طبيعيًـا وبحالتـه الشـبابية، الأشـجار والطيـور والحيوانـات تحـتفظ برونقهـا، حيـث لا يمـوت فيهـا شـيء إلا بفعـل فاعـل، كمـا أن الأشـياء لا تكبـر. وعلـى فكـرة، فـإن الحيوانـات ومـن يعـيش علـى هـذه الجزيـرة كلهـا مسـالمة، غيـر مؤذيـة، ممكـن أن تلعـب مـع الأسـد والنمـر والـدب والثعـابين غيـر السـامة. الحيـاة هنـا رائعـة، إنهـا أشـبه بالجنـة التـي وعـدنا الله بها، ربما نحن قربها.

هكـذا بـدأ عبـق الشـوق ينتشـر فـي حقـول فكـري، وهـي تمـيس خمائـل الخجـل المدفونـة فـي ملامـح وجهـي، تـرق فـي مهـابط الانطـواء الداكنـة فـي أعمـاق صـمتي، تُبـان فـي ركاكـة التعبيـر والتأتـأة المغـروزة فـي لسـاني، فـي الضـحكة البـاردة وهـي ترتسـم علـى محيـاي دون إرادة، عائمـة فـي وسـط حيـرة اسـتلطافها. أجـد ذاتـي مشـغولة فـي إيقـاد شـموع الرغبـة فـي وجـداني، مشـغولٌ فـي إيقـاع غيرتـي المُـرّة ورهـق مبـالاتي، فـي أنـانيتي وهوسـي بهـا. محتـار فـي التعامـل معهـا، فهـي بعـرف الواقـع مـن جيلـي، وبعـرف الحقيقـة تكبرنـي بأربعـة وسـتين سـنة، فعلـيّ بـالواقع ولا أنظر للحقيقة.

يـا تـرى! مـن أيـن أبـدأ الخطـوة؟ كـل خطـواتي مرصـودة، لا تتجـرأ أن تغـادر مواجعهـا إلا بأمرهـا، فهـي محكومـة بالقـدر ورضاها.

وقبـل أن ننهـي اللقـاء ونفتـرق، أشـارت إلـيّ إلـى دار الضـيافة لأسـتريح بهـا، كمـا وعـدتني بجولـة حـرة بطائرتهـا فـوق أرجـاء الجزيرة، رغبة منها في استطلاعي على أسرار الجزيرة.

عنـدها حضـنتها بغـنج، قبلتهـا مـن بهـاء خـدها، كـأني قبلـت تـويج زهـرة القديفـة لـنفح العطـر الشـذي ونعومـة الملمـس... بقيـت تلـك القبلـة تحـضّ فـي ذاتـي رغبـة الـزواج منهـا، كمـا هجسـتُ قـد حفـزت ذاتهـا للقبـول بـي مـن خـلال النشـوة التـي بانـت عليهـا. إنهـا أنثـى وقـد افتقـدت العاطفـة والحنـان منـذ سـنتين، فـلا بـد لهـا مـن شوق يجلدها لتتقبل ذكرًا في حياتها.

بـتُّ أشـعر بسـعادة مرنـة وهـي تـدور فـي أروقـة ذاتـي كـالزئبق، كلعبـة تـدور فـي خلجـان فكـري وفـي عصـف الهـوى، كلمـا وددتُ الإمسـاك بهـا؛ فلتـت مـن قبضـة يـدي لأجـل قـادم، وهكـذا بـتُّ أتتبـع تلـك السـعادة، أحسـبها أيـام شـغف وعنـاء، قبـل أن أطـرق بـاب الزواج.

ودعتهـا علـى أن أزورهـا قريبًـا. اتجهـتُ لـدار الضـيافة والتـي لا تبعـد عـن القصـر سـوى مسـافة 200 متـر فقـط، متـأملًا لقائهـا فـي أقرب فرصة وحسب ما تهوى ذاتها.

مـع خروجـي مـن القصـر، بـدأت الأمنيـات والأحـلام تكبـر وتـزداد حجمًـا وبعـدًا فـي مخيلتـي، حتـى أنـي شـعرتُ بـذاتي قـد أنجـزت 90% مـن مـا كنـتُ أحلـم بـه فـي طفـولتي، فلـم يبـقَ سـوى الهـدف الأسـمى لأكـون سـيدًا أتـنعم بتلـك الـنعم مـن الأحـلام الآنفـة كحقيقـة. لـم يبـقَ لتكتمـل خـرز المسـبحة سـوى إضـافة الشـاهد أو الشـاهود كمـا يُسـمى... بقيـتُ أسـيّر تلـك الفكـرة وهـي تتـدحرج أمـامي ككـرة الثلج نحو مصب الهدف.

12- البحث عن هدية

أصبح جلوسي على شاطئ البحيرة عادةً يومية، صيغة من الحياة الروتينية التي انغمست فيها ضمن جدول حياتي، نتيجةً لإرهاصات تفكيري المستمر في شخص الأميرة من جهة، والوحدة المقيتة التي ألفتني من جهة أخرى. صرت أجلس على صخرة كبيرة على ضفاف البحيرة، أتأمل غدي المليء بالمفاجآت، تارةً يجرفني تيار الخيال مبحرًا في محبة الأميرة وشجون الأحلام السادرة، وتارةً يقذفني الموج نحو شواطئ قريتي، حيث تركت الحدث يستوقد على نار الذكرى، وبالذات في والدتي، وشقيقتي بثينة، وصديقي إبراهيم.

أهجس بذاكرة الماضي، تحثني على تقمص الوحدة، وتعيدني لفترة الطفولة، تلك المرحلة التي التصقت ببالي وبأهوائي كصمغ الشجر. أتذكر فيها عنجهية أبي وجهله وقسوته، وتلك الأيام التي صاحبت فيها إبراهيم، وطيبة وحنان أمي، ورفقة أصدقاء المدرسة، والأماكن التي كنت أجلس فيها أشغل بالي بهم، والشارع الوحيد المزدحم في القرية بكراكيبه، والأسواق الشعبية والمقاهي المنتشرة، وبائعي الخضار، وعربة الباقلاء واللبلبي والشلغم. كم كانت تلك الأيام جميلة، فيها حياة نابضة، افتقدتها، افتقدت لحظات الأنس بصحبة تلاميذ المدرسة وقراءة القرآن، وحين نخرج من الحصة نتجه إلى بائع الحمص المطبوخ لنلتهم صحونًا منه بشغف الأطفال.

صارت وحدتي تحثني على التفتيش عن منفذ أهرب منه، لأتخلص من زنقة الوحدة التي تقوقعت بها. بتُّ أدور في طرق الجزيرة أبحث عن مآربي، أفتش عن جوهرة تليق بجيد الأميرة، عسى أن أكسر طوق الوحدة اللعينة بكسب رضاها، بفعلٍ يترك أثرًا في حياتها. فأنا لا أملك شيئًا في جعبتي يستحق أن يُهدى لها، سوى صدق المشاعر التي أتحلى بها، وتلك تحتاج لتجارب حتى تمتحن في المحك، إضافةً إلى طيبة مرنة ورغبة صادقة مغروسة في القلب.

لذا بات هاجس القلق يرفرف كطير في سماء الصمت، يذكرني بالوجس المخزون في أعماقي. بتُّ أفتش عن وهدة أمان في سلة الأيام القادمة، عن اللغز الذي يقربني من الأميرة. لقد قادني فكري إلى التنبؤ بأن الهدايا تسعد المرأة كثيرًا، ذلك ما قرأت عنه وسمعته من أمي ومن فتنة التي كانت تحث والدي على جلب الهدايا باستمرار.

حسبت أن فترة وجودي بالنسبة لها هي فترة نقاهة، تعيد بها ترتيب أوراقها المبعثرة، قبل أن تخاطر بعالمها وأنوثتها ومكانتها وترتبط بي بميثاق عهد وعبودية خالصة، بميثاق محبة أبدية قد لا تروق لها فيما بعد. حيث لا يزال في سجل قلبها شيء من الماضي يخص الأمير، يسيطر على مشاعرها وأفعالها، وقد يخصني أنا ولا يروقها سني وسلوكي لاختلاف عالمنا الذي قدمنا منه. قد تنظر إليَّ على أني طفل في نظرها لم يكتمل نضوجه بعد، فيأتي عطفها ودفقها من باب اللطف لا من باب العاطفة.

لا تـزال هنـاك موانـع طبيعيـة تفصـل بيننـا؛ بعضـها أخلاقـي ونفسـي، وبعضـها عـاطفي وتقبّلـي، تحيـدها عـن خـوض مجازفـة الارتبـاط العـاطفي بـي. ورغـم أن الـزمن سـيجبرها يومًـا علـى القبـول بـالواقع، إلا أنهـا تفضّـل الانتظـار، كمـن يترقـب دورة حيـاة جديـدة لمـذنب هـالي، علّـه يعـود ليخطـف شـابًا تقتنـع بـه. فـالحلول أمـام سـعيها تبـدو عقيمـة، ولا مفـرّ لهـا مـن مواجهـة الحقيقة.

لـذا كنـت أجـول بـين البسـاتين، وعلـى شـاطئ البحيـرة، وبـين الـتلال والأوديـة القريبـة، أبحـث عـن جـوهرة تليـق بجيـد الأميـرة، تحـرّك اهتمامهـا بـي، وتزيـدها ثقـة بوجـودي. أحيانًـا تأخـذني جـولاتي إلـى عـالم السـحر المنتشـر فـي بقـاع الجزيـرة، فـألهي ذاتـي بـالطيور والـورود، أقطـف ثمـرة لذيـذة، أو أسـتمتع بمنظـر خلاب، أو ألاعِب الطيور والفراشات البهيجة.

وقـد اكتشـفت أن لتلـك الفواكـه ميـزة غريبـة؛ مـا إن أقطـف ثمـرة منهـا، حتـى تنبـت أخـرى مكانهـا فـي اليـوم التـالي. إنهـا دورة التكـوين الـذاتي المسـتمر مـع الـزمن. كمـا وجـدت أن بعـض أنـواع التفـاح لهـا طعـم اللحـم، مليئـة بـالبروتين، فـإذا ذقتهـا شـعرت كـأنني تناولـت قطعـة لحـم مشـوية، بـذات القيمـة والطعـم. ولهـذا، لا تفتـرس الحيوانـات المفترسـة بعضـها، بـل تتغـذى علـى هـذه الأصـناف اللحميـة مـن الفواكـه: تفـاح، كمثـرى، ونـوع مـن البطيخ، كلها مواد عضوية بروتينية عالية القيمة.

بقيـت علـى سـجيّتي خـلال تلـك الأيـام، حتـى بـدأت الوحـدة تـنهش فكـري وجسـدي. فالإنسـان دون ألفـة حميميـة لا يمكـن أن يسـتمر

بالحياة، حتى لو سكن جنة الله. يقول المثل الشعبي: "جنة بلا ناس ما تنداس". لقد كان طرزان بشرًا، وحين توحّد، تحوّل لحيوان، عاش حياة القردة.

لا بد إذًا من حبيب أو صديق يكسر طوق الروتين، تشعر به ويشعر بك، تتداول معه الأفكار والغايات، لتتجدد ديناميكية الحياة في العروق. لا أدري كيف صبرت الأميرة كل تلك المدة في وحدتها بعد غياب الأمير؟ لكنها كانت مجبرة. صحيح أن من تطبّع بطبع مات عليه، إلا أن الوحدة تعود باللعنة على صاحبها. فهي، إضافة إلى قرفها ومللها، وخيمة، قاتلة، لا تنجلي عقدها إلا بوليف يزيح عن الذهن تشمع الوحدة، وعن البدن كسلها وخمولها وعجزها المتخم كبكتيريا العفن.

وبعد ثلاثة أيام من وجودي على الجزيرة، أو بعد لقائي الأول بها، وبينما كنت جالسًا على الشاطئ، رأيتها قادمة نحوي، تمشي الهوينا، كأنها لم تصبر على فراقي. جاءت ترتدي فستانًا طويلًا أسود فاحم، مفلج الصدر، مقوّر الظهر، تشرطه فتحة جانبية حتى الفخذ. يشد خصرها حزام عريض من الدانتيل بلون صفار البيض أو الزعفران، يوائم لون حذائها وقلنسوتها. ناثرة شعرها على كتفيها، باسمة، مشرقة الوجه، كأنها والطيور التي تزفها، حورية خرجت من جوف البحر...

باتت تراود فكري أسالة أحتار في الإجابة عليها:..

يا ترى... أهي حورية تجسدت في هيئة بشر؟ أم أنها آية من الجن أو الشياطين؟ أم أنها ببساطة إنسانة؟

لقد شطح فكري، ولم أعد أصدق أنها من المغرب كما تدّعي. بتُّ أتنقل بين كل الاحتمالات، حتى تلك المستحيلة منها.

ربما... لم لا؟ كل مباهجها تدل على أنها من صنف الملائكة، وأظنها كذلك. سخرها الله لي لتسعدني، أو سخرني إليها لأسعدها. لمستُ يدها، قبلتها، شعرت بدفئها وعطفها. إنها فاتنة، رقيقة، جميلة، لم أجد فيها خيطًا شيطانيًا قط. هجست بها ملاك رحمة. ليتها تنحدر بتفكيرها إلى تفكيري، تفكر بي كما أفكر بها. ليتها تتزوجني وتنهي معاناتي. مثلما وصلتُ إليها، وصلت هي إليّ بذات الطريقة. إنها إنسانة.

ما إن اقتربت مني حتى ارتقت الصخرة وجلست بجانبي، متلهفة لحديث الشوق. هجست بها فرحة بوجودي، هائمة بلقائي. ما إن جلست، حتى غطى أريج نفحها الفواح على عبق الأزاهير النفاثة من شجيرات الورود القريبة. هجست لعطرها الشذي سرًا غريب النوايا، شدني إليها، جعلني أنغمس في مفاتنها. عطر مغنج بكأس العود، أزكى من الطيب، وأرقّ وأهدأ من شذى الياسمين والقرنفل واللافندر. وددت أن أضمّها، لولا الخجل الذي قيد مآربي، ومنعني من الانحدار خوفًا من السقوط والفشل. خيط عقد لساني، وشلّ ذراعي...

غشيَّ نظري.. حينها سألتني عن حالي ونهى تفكيري:...

- كيف حالك اليوم، أراك ليس على بعضك، هل تعاني من شيء؟
- لا أنما مبهور بجمالك، أنت أجمل ما في الجزيرة، حاولت كتمان أعجابي بك فلم أستطع، يظهره الخجل على الشفاه والوجنتين، يطفح الارتباك على ملامح وجهي ويبان في عينيَّ، أرجو أن تسامحيني إن تطفلت وتجاوزت الحدود، فالأمر خارج عن إرادتي.
- لا بأس عليك، وأنا أيضا معجبة بوسامتك، فلا ضير في ذلك، لقد بهرتني بسمرة بشرتك.. اليوم السماء صافية، لا تشوبها السحب، لذا وددتُ أن اطلعك على أسرار الجزيرة وأسرار قلبي، وأن أعلمك بأني بحاجة لوجودك معي، لذا أطلب منك أن تعيش معي في القصر، حيث اتخذتُ القرار بعد أن راجعتُ أوليات المسألة والعقد التي تحيط بنا، فوجدت وجوك معي يمثل الحل الأنسب لي ولك.

حينها شهقت بفرحة ملئت صدري، فقلت لها بيُمن وشكر:...

- شكرا لعطفك يا رب، تلك أمنيتي لم استطع أن أبوح بها، لقد اختصرت الطريق على الفؤاد.

حيث كانت ملتزمة بعهد مع الأمير الذي لمْ ولن يعد له وجود حقيقي، لأنه وحسب ما فسرت لي الأجواء والظروف في حينها قد بلعته موجة قوية بعد أن تجاوز حدود الجزيرة. حتما غرق وأكلته الأسماك، ولكن من المؤكد أنه لم ولن يعود للجزيرة، لذلك رجتني أن أتقبل دعوتها. فأجبتها بسرور:..

- أنا سعيد بلقائك وسعيد باقتراحك، بل أنت فعلا تلك الفاتنة التي كنت أحلم بها في صغر سني، لقاءنا لم يكن وليد صدفة، بل كان مخطط له، خطه القدر وزرعه الله في ذهني، وهو الذي أغرق الأمير وهو الذي قادني إليك. لا أعرف تفسيرا للحالة، ولكن هذه الحقيقة وهذا الأمر مضى معي بمشيئة الله وليس بإرادتي.

حينها مالت إلى صدري، وقبلتني قبلة طويلة، هجست بها ترتعش، كأنما أصابها ما أصابني من سرور. حتى الطيور بدأت تدور حول رؤوسنا في حلقات فرحة، تطير بخفة وتصدح بألحانها، حيث امتزج الهديل بالزقزقة، والشقشقة بالطقطقة، والصفير بنشيد الطبيعة.

وبعد تلك القبلة، همست لي:....

– شكراً لك، لقد أعدت إليّ حيويتي التي افتقدتها طويلاً حزناً على غياب الأمير.

كان اليوم مشمسًا، والحرارة معتدلة، والهدوء يلف الجزيرة كوشاح من سكينة. قالت لي:

– دعنا نذهب إلى القبة لنرى ما فيها من عجائب. كما أخبرتك سابقًا، إنها قبة فلكية، ستأخذك إلى عالم الغياهب. سترى الأجرام والأفلاك والمجرات عن قرب، وستعرف كم نبعد عن الأرض، والمدارات التي نسلكها.

أجبتها بشغف:....

– هيا، أنا متلهف لذلك.

قالت بابتسامة واثقة:

– ستندهش، حتماً ستندهش. فالوصف لا يوضح إلا الشكل، أما الجوهر فغائر في عمق خيال الصورة، يصعب وصفه. سترى أشياء لن ولن تتخيلها.

فقلت لها:

– شكراً لكِ سيدتي الجميلة، كنت أبحث عن جوهرة أعلقها على صدري، فوجدتها... أنتِ، بكيانك وقامتك، أثمن الجواهر.

ابتسمت لي ابتسامة هادئة، فيها شيء من الحيرة والاستفهام، وكأنها قالت لي: دعنا نجرب الأمر. كلماتها عن غرائب القبة زادت من لهفتي، من شغفي لاكتشاف ما فيها، لمعرفة موقعي من الأرض، وحل لغز رحلتي. هل توافقت أحلام الطفولة مع الواقع الذي أعيشه الآن؟

اتجهنا إلى القبة، التي لا تبعد كثيرًا عن القصر، بخطوات هادئة. أمسكتُ يدها اليسرى بيسراي، وطوقت خصرها بشغف يمناي، كأنني أخشى أن تفلت من بين يدي، غير مصدق أنها سلمت ذاتها لذاتي.

سرت في داخلي سعادة رهيفة، جعلت الدماء تتجدد في شراييني، دبت الحيوية في أوصالي، حيوية لم أحظَ بها من

قبـل. صـرت أكتسـب طـاقتي مـن طاقـة جسـدها، وأغتـرف مـن فتنتهـا. ثوبهـا الأسـود الفـاحم بـدا وكأنـه يشـهق فرحًـا بفتنتهـا ونعومتهـا، مصـنوع مـن الحريـر المطعّـم بالقديفـة القطنيـة، يلتصق بجسدها ليبرز مفاتنها برقة آسرة.

أمـا الطيـور التـي كانـت تحلـق فـي الأجـواء، فقـد رافقتنـا فـي مسـيرنا، ترفـرف فـوق رؤوسـنا، حتـى وصـلنا إلـى مـدخل القبـة الزرقاء...

15- القبة الفلكية

دخلنا إلى القبة الفلكية، ذلك الصرح الزجاجي البهي، المشيد من مكعبات بلورية زرقاء، تتلألأ كأنها قطع من السماء. صُممت القبة على هيئة نصف كرة، قاعدتها مدفونة في الأرض بعمق متر، ويبلغ قطرها قرابة عشرين مترًا، مما يمنحها هيبة هندسية وسحرًا بصريًا.

في وسط القبة، انتصبت طاولة دائرية تحفها كرسيان، ربما كان أحدهما مخصصًا للأمير الغائب. الطاولة، بقطر يقارب المتر، مصنوعة من حجر مرمري أملس، يعكس الضوء كمرآة صامتة. أما الكرسيان، فكانا من عظم العاج، مرصّعين بأحجار كريمة: فيروز، عقيق، توباز، وزبرجد، كأنهما عرشان صغيران في حضرة المجرة.

ما إن جلسنا جنبًا إلى جنب، حتى استنارت أضواء خافتة فوق سطح الطاولة، كأنها مرتبطة أوتوماتيكيًا بمقاعدنا. كانت أجواء القبة معتمة، أشبه بمظلة ليلية كثيفة، تغشي البصر وتغمر الحواس بسكون مهيب.

بدأت القبة تدور بنا بهدوء تام، لا أدري إن كانت الكراسي هي التي تديرها، أم بفعل طاقة كهرومغناطيسية خفية. هجست بأن الكراسي تدور عكس دوران القبة، كأننا في قلب آلة زمنية، ثم بدأت الأجرام والمجرات تتوافد في سماء القبة، تنبع من بطانتها كفقاعات بركانية، تتصاعد ببطء وتوهج.

عندها بدأت تشرح لي آلية عمل القبة، وقالت:

- للقبة ميزة فريدة، لا تحتاج إلى جهد للغوص في دهاليز الأجرام والمجرات. إنها تعمل على هاجس الفكرة التي تدور في ذهنك. بمجرد أن تضع سبابتك على منتصف الطاولة، تظهر لك إشارة في سماء القبة، تشبه مؤشر فأرة الحاسوب. يمكنك تحريكها كما تشاء، نحو الجرم الذي تود معرفة ألغازه. بمجرد أن تلتقط القبة الفكرة الدائرة في ذهنك، تغوص في إدارة المعلوماتية المخزونة، وتجهز لك كل البيانات المطلوبة. تنتقل الفكرة من ذهنك إلى ذهن القبة أوتوماتيكيًا، ثم تنقلك إلى الهدف المراد بيسر دون تعقيد. دور القبة هو احتواء الفكرة وتحويلها إلى واقع ملموس. على سبيل المثال، دع عقلك يتجه إلى أي جرم في هذه المجرة المبعثرة، وستكشف لك أسراره حالًا.

لكن عليك أن تركز جيدًا، فالقبة تستجيب لقوة الفكرة، وتركيز الذهن، وإشعاع النظر المنبثق من عينيك. إذا دارت في ذهنك عدة أفكار، ستلتقط القبة الأقوى بينها. أما إذا تواردت أفكار متعددة بنفس القوة، فإنها لا تعمل. لذا، ركّز على نقطة واحدة لتتمكن القبة من مساعدتك.

قلت لها، وأنا مشدوه بما أسمع:.....

- أود أن أعرف كم هي المسافة من موقعنا إلى الأرض؟

حينها دارت القبة نحو جرم صغير، بدا كالنقطة، ثم امتد شعاع من كوكبنا إلى الأرض، وظهرت المسافة مقدّرة بثلاث سنوات ضوئية، معلّقة فوق الشعاع!

صرخت بدهشة:....

- يا إلهي... كيف تجاوزت تلك المسافة دون أن أموت؟ بأي سرعة كنت أجري؟ هل كانت تعادل سرعة الضوء؟ فالشهب، وهي مجرد أحجار ساقطة من الفضاء، تشتعل بمجرد ملامستها للغلاف الجوي، رغم أن سرعتها أقل بكثير من سرعة الضوء. كيف نجوت من الاحتراق؟ كيف لم أفنَ؟ عقلي لا يستوعب الصورة... أليست هذه معجزة؟

أجابتني، وهي تشاركني الحيرة:...

- وأنا عاجزة عن تفسير ذلك. لقد مررت بهذه التجربة من قبل. ربما كانت أجنحة الطائرة والمنطاد قد خففت كثيرًا من السرعة، فتجاوزنا بها حالة الاحتراق، وساعدتنا على الانفلات من قبضة الجرم.

حينها خطرت في بالي فكرة معرفة أحوال أبي وأمي، فظهرت لي صورة لرجل كهل، مقعد، متعب، مرمي في

غرفة خربة، تشبه تلك التي كانت تسكنها أمي قبل أن يوافيها الأجل.

رأيت إبراهيم، وقد تزوج بفتنة زوجة أبي التي سيطرت على أملاكه. جعلها تخضع لشروطه بقوة شبابه، فتمكن من السيطرة على الأموال، ثم تزوج بأختي بثينة، بعد أن كبرت ونضجت، وأضحت تجذب الانتباه.

كان إبراهيم يبدو لي عجوزًا، فعلمت أنني قطعت المسافة بزمن طويل. لكنه أحسن التصرف، أعاد الحق لأهله، وأكيد أنه أعان والدتي قبل وفاتها، ملتزمًا بوصيتي له. ذلك ما دعاه أن يقسو على أبي، بعد أن لمس قسوته عليّ وعلى بثينة.

أما أمي المسكينة، فقد اشتد عليها المرض بعد فراقي، كانت تعاني من التهاب الكبد الوبائي، ولم تجد من يواسيها إلا ذكرياتي.

رأيت السوق الشعبي كما تركته، لم يشوبه أي تطور، كأن الزمن توقف عنده. البلدة بقيت على حالها، دون تغيير، دون نمو. كأن القبة قد أعادتني إلى الوراء، إلى زمن بعيد، لأتقصى أخبار أبي وأمي وأختي، وأحوال مزرعة الأبقار التي اعتنى بها إبراهيم.

ثم دارت في رأسي فكرة أن ألهي ذاتي بالأجرام الدائرة في الفلك، فبدأت أختار بعض الأجرام بعشوائية، باحثًا عن ألغازها وغرابتها. بدأت بتلك الأقل إشعاعًا، واخترت جرمًا

خافتًا صغيرًا جدًا، يبعد عنا عشرة سنوات ضوئية. كشفت لي القبة عن غرابة ذلك الجرم، بتضاريسه المتموجة كأمواج البحر الهادئة، ملونة بألوان الطيف، منظرها الجذاب يدل على أن الكوكب مكوّن من أحجار كريمة، يشيع فيه النحاس والحديد، مما يمنح سطحه ألوانًا مائلة للحمرة.

أما نباتاته وأشجاره، فسيقانها قصيرة، تكاد تلامس الأرض. وبعد فحص دقيق في ربوعه، تبين لي أن ساكنيه أقوام من السنافر، قصيرو القامة جدًا، جلّهم من الأقزام. بيوتاتهم أشبه بكراتين علب الشاي ذات حجم الكيلوغرام، وأخرى مبنية بأشكال مخروطية تشبه قوالب سكر القند، كأنها تحاكي أهرامات مصر.

سألت الأميرة عن سبب قصر قاماتهم، إذ لا يتجاوز طول الشخص منهم طول راحة اليد، رغم أنهم بشر يفهمون لغة التحاور. فقالت:...

– ذلك يتبع شدة الضغط الجوي العالي في ذلك الكوكب. انظر إلى المعلومات المدرجة أسفل القبة، حيث الضغط الجوي هناك يعادل قرابة تسعين ضعفًا من الضغط الذي نتعرض له. وهو كوكب صغير، قطره يعادل نصف قطر القمر.

حين وددت أن أدخل إلى ذلك الكوكب لأتعرف على سلوكهم وأسلوب معيشتهم، وجدتهم أشبه بمجاميع النمل، يعملون بصدق وإخلاص وهدوء، لكن دون تخطيط واضح. عملهم شبه عشوائي، رغم الألفة الحميمية التي تجمعهم. كأنهم

شعروا بوجودي، إذ وصلتني منهم إشارة غريبة، طلبوا مني أن أنتقل إليهم وأعيش بينهم كملك على كوكبهم. ودّوا ذلك من خلال تخاطر الأفكار الذي دار بيننا، ورغبوا أن أخطط لهم وأنظم شؤونهم.

نقلت الفكرة إلى الأميرة، فقالت:....

- يمكنك أن تنتقل إليهم، لكنك لن تستطيع العودة إلى هنا نهائيًا. ستذهب بمخك وعقلك ومشاعرك وأهوائك، دون إمكانية للعودة. كل ذلك سينتزع من جسدك كانتزاع الروح من الجسد. سيبقى جسدك هنا خاملاً، لا روح فيه ولا جدوى.

ضحكت وقلت:....

- هل أنت تمزحين معي؟ هههههه، كيف أخاطر بعقلي بعيدًا عنك؟ لا، وألف لا. لن أبدلك بالدنيا كلها، لن أتزحزح من هنا ولو أعطوني الجنة بحواريها.

ابتسمت لي، شاكرة عواطفي الجياشة تجاهها.

ثم خرجت من ذلك الكوكب، لينصب فكري على نقطة أخرى تبعد عن الأولى بخمس سنوات ضوئية. وإذا بي أجد فيها أقوامًا قد تجاوزت أطوالهم عشرة أمتار، لهم رقاب طويلة كرقاب الجمال، فيما أشجارهم تزيد عن أطوال أشجارنا بخمسة أضعاف تقريبًا.

وجدتهم أقوامًا كسالى جدًا، لا يجهدون أنفسهم في الأعمال، ولا يتعاونون فيما بينهم. يعيشون كالحيوانات، يقتاتون على ثمار الأشجار التي تطالها أياديهم، وعلى أوراقها. لم أجد لهم بيوتات يستقرون بها، بل يعيشون في كهوف وكوات ضخمة، واضحة بين سفوح الجبال الشاهقة، كأنهم من إنسان العصر الحجري.

عرفت من خلال أطوالهم أن الضغط الجوي في هذا الكوكب ضعيف جدًا. وتذكرت قوله تعالى: "خير الأمور أوسطها"، فتبسمت للأميرة، شاكرًا النعمة التي ألفانا بها الله، بجمالنا وأطوالنا المعتدلة.

ثم توجهت إلى بقعة أخرى خارج تلك المجرة، تبعد عنا بخمسين سنة ضوئية. وإذا بي أفاجأ بملك ظالم يستعبد شعبه، حيث الأرض والوجوه والأجواء والقفار كلها مغبرة. الناس هناك منهكة، متعبة، جائعة، فقيرة، نتيجة استبداد الملك الجائر في ذلك الكوكب. الظلم المستبد دائر بين الرعية، بيوتاتهم خرائب، وأرضهم قفار، وأشجارهم خاوية.

كان الملك يستحوذ على كل شيء: النساء، الأولاد، الأرض، الأموال، الطاقة. كل شيء في الكوكب يُعتبر من أملاك الملك، وهؤلاء جميعًا يُعتبرون عبيده وخدمه وحشمه. يتبعون شريعة عبادة الملك، لا يملكون من أمرهم شيئًا.

ثم انتقلتُ إلى بقعة أخرى في ذات المجرة، فوجدت نقيض ما رأيت آنفًا تمامًا. وجدت كوكبًا تحكمه ملكة عادلة، سمحة،

تنضح وجوه رعاياها بالبشاشة، والخير فيه وفير، والأرض خضراء يانعة. أبنيتهم شامخة كأنها ناطحات سحاب، تتجلى فيها روعة العمران وجمال الهندسة، فتراها دائرية ومخروطية، ملتوية وشاقولية، ذات قبب وأخرى كروية أو مسطحة أو مربعة... سبحان الله، كأن الإله قد منحهم عقلًا راجحًا، وسعادةً غامرة، ونشاطًا وألفة، كما أنزل سخطه وغضبه على من سبقهم. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ﴾ صدق الله العظيم.

ثم تحولتُ إلى نقطة أخرى، فوجدت الناس فيها تائهين، ضريرين، لا يعرفون وجهتهم ولا كيف يدبرون معاشهم. كثير منهم يعيشون على المزابل كالحيوانات السائبة، بسبب كثرة العصابات والميليشيات التي تجوب البلاد. الحاكم فيها مجرد طرطور، منزوع القرار، والأوضاع متدهورة، والخير مفقود، والأعمال ضائعة بين القوى المتصارعة. الأمان مفقود، واللصوص يسلبون الفقراء، والكل يلهث خلف مصالحه الشخصية دون أن يلتفت إلى الغالبية المسحوقة. لا مستشفيات، لا مدارس، لا رعاية، لا اهتمام... إنه بلد الغاب، حيث الغلبة للقوي الذي يقهر الآخرين.

ثم انتقلتُ إلى بقعة سوداء طافية بين الأجرام، تشعر فيها بوجود دوائر محورية تحيط بها. وحين هممت بالإبحار نحوها، أمسكت الأميرة بيدي ومنعتني من المجازفة، وقالت لي:....

- بمجرد أن تدخلها وتغور في أجوائها، ستفقد عقلك في الحال. هذه البقع معروفة بقوة جاذبيتها، فهي تجذب كل شيء حولها، حتى الضوء لا يفلت منها، لذلك تراها سوداء داكنة لا ينعكس منها إشعاع. التفكير بها وحده يستهلك العقل، فكيف بالدخول؟ ستخسر ذهنك وتصبح عنصرًا ثقيلًا بلا فائدة.
- شكراً لك على نصحك وخوفك عليّ. ثم قبلتها وقلت لها: ما فائدة الجسد دون عقلٍ ينير طريقه؟

ثم تحولتُ إلى بقعة لامعة، غصتُ في وهجها، فوجدتها كوكبًا أشبه ببركان هائل، كالشمس التي نعرفها، لكن لهبها بلا دخان. كانت الأحجار فيها كالجمر المتقد، تشع بحرارة قادرة على إذابة الماس والحديد في لحظة. سألت الأميرة عن جمالية تلك الأحجار، فقالت:....

- هذا ليس كوكبًا، بل نجمٌ يتوهج في دُجى الليل. بعضه يفيض بغازات متقدة، منها: الميثان، الأوكسجين، الأرغون، النيتروجين، الهيدروجين، وأحيانًا الأرسين، الفوسفين، السيلان، والديبوران. هذه الغازات سريعة الاشتعال، وتضفي على النجم ألوانًا قزحية ساحرة.

ثم انتقلتُ إلى بقعة أخرى، محشوة بالأغبرة والعواصف الهوجاء، كل مكوناتها أبخرة سامة، أشبه بغيوم تتراكب في طبقات، كل طبقة تستمد طاقتها من التي تحتها، وكأن انفجارًا بركانيًا وقع في قلب الكوكب. سألت الأميرة عن نوع هذا الكوكب، فقالت:....

- إنــه نجــم أو كوكــب فــي طــور التكــوين، يحتــاج لآلاف السنين ليأخذ دوره في الحياة.

عنــدها توقفــتُ عــن المتابعــة، فقــد أدركنــا الوقــت، وكنــت قــد تشبعت بكمٍ هائل من المعلومات. خرجنا من القبة إلى القصر، شاكرًا الأميرة على اهتمامها وكرم معرفتها، وشاكرًا الله على النعمة التي أغدقها عليّ.

هجستُ في ذاتي أنها كانت بحاجة إلى تلك المعرفة، لبناء صرح تفكير سليم يوازي عقل الأميرة. وهجستُ أيضًا أنني محظوظٌ بلقائها، فبانـدماجي بها، قد أتمم قدري وأحقق كياني، وفق المثل الذي لطالما حلمت بها.

16- السمكة

تركت دار الضيافة، وانتقلت للعيش مع الأميرة في القصر، بناءً على رغبتها ورغبتي. أشاركها كل شيء، عدا سرير النوم، فقد أجلنا ذلك إلى حين تنسجم أفكارنا تمامًا، وتقرر هي إن كانت راغبة في الزواج أم لا. ذلك كان شرطها الوحيد.

اتفقنا على صيغة معاشرة مرنة، نجدد فيها حدود تفكيرنا كل شهر أو شهرين، حتى نصل إلى قناعة مشتركة بشأن الزواج. لم تكن ترغب في أن تتورط بعقدة فشل تنغص عليها حياتها، بل أرادت أن تذيب المشاعر وتخمر المحبة بين قلبينا، قبل أن نغوص في وهدة الاستقرار الأخيرة.

بالطبع، قبلت شرطها وأيدته. فلا يوجد في الجزيرة رجل سواي، أما ما ادعت من أقوام يعيشون في كهوف الجبال، فلم أرَ أحدًا منهم، رغم أنني وجدت في الغابة آثارًا تدل على وجودهم: درع، رمح، صحون، وقدور قديمة. ربما يحمل اختفاؤهم سرًا لم أكتشفه بعد.

خلال معاشرتي لها، وجدتها إنسانة غاية في الرقة والبساطة والطيبة. تتجلى فيها صفات الأميرة بكل ما تحمله من رقي ومعانٍ. أليست ابنة ملك فحسب قبل أن تعصف بها العاصفة؟ امرأة هادئة، مرحة، فاتنة، متأنقة، قوية الشخصية، مفعمة بالأنوثة، حتى ليعشقها الجماد لما فيها من سحر وطلة، ووجهها مشرق كالبدر التمام.

تلك الصفات دفعتني للالتزام بسلوكي، وجعلتني أكثر وعيًا بذاتي، بقيافتي، وتصرفاتي. أردت أن أرتقي لرقيها، وألا أُسجل على نفسي نقاط ضعف تخدش سجل اتفاقنا المبدئي. بدأت أهيئ نفسي لمواجهة التحدي، حتى تنصهر شخصيتي بشخصيتها، وأسترق من سحر صفاتها صفات أذيبها في شخصي، لتتطابق مفاهيمنا وسلوكنا.

كثيرًا ما شط بي الفكر بحثًا عن فكرة تقربني من صرحها، ترفع من قدري ومكانتي لديها. فكرت في تقديم هدية نادرة، أو القيام بعمل خارق، أو مغامرة تبهرها، كما فعل الأمير الذي بنى لها القصر والقبة الفلكية.

كنت أخرج أحيانًا من القصر دون علمها، متجولًا في الجزيرة، أبحث عن شيء ثمين يليق بها، أو هدية تلامس مشاعرها. فكرت في صنع تحفة من خزف الطين على هيئة طير أو بشر، ألونها بألوان طبيعية، لكني اكتشفت أنني بدائي في هذا المجال، ولن أرتقي إلى مستوى الإبداع الذي رأيته في القصر. عزفت عن الفكرة، إذ أدهشتني تحف القصر، وما ترتديه من حلي وأساور وقلائد مصوغة بدقة تسحر النظر.

لم تطاوعني نفسي أن أسألها عن مصدر جواهرها، فالثقة لا تزال هشة، وقد تسيء فهمي وتظن بي طمعًا، فأخسر ما أسعى إليه. لكنها لمحت لي ببعض الأمور، قالت: "كنت أتجول مع الأمير في الطائرة"، وهذا يدل على أنها فعلاً ابنة ملك، وأن الأمير شخصية مرموقة، فمن يستطيع التجوال بطائرة خاصة مع ابنة الملك؟

كثيـرًا مـا تفـرض الأقـدار نفسـها، فتجيـر مصـيرنا إلـى واحـة الصـدف، وقـد تكـون تلـك الأقـدار مفـاتيح لأبـواب مؤصـدة، أو أقفـالًا أبديـة عليهـا. وكـل ذلـك يعتمـد علـى دور الحـظ فـي كسـب المقامرة.

فـي صـباحٍ مشـرق، بينمـا كنـت أتجـول علـى الشـاطئ، انحـدرت صـوب السـاحل الجنـوبي أبحـث عـن أصـداف وقواقـع ونجـم البحـر، لأصـنع منهـا قـلادة غريبـة تُعلّـق علـى جـدران القصـر، كأنهـا تـروي حكايـة البحـر. لاحظـت انخفـاض منسـوب البحيـرة بشـكل لافـت، بفعـل المـد والجـزر، فخلعـت ملابسـي وانحـدرت إلـى وهـدة منزويـة لأسـبح فـي مياههـا، أجمـع الأصـداف بعيـدًا عـن أنظار الأميرة.

وخـلال نزوحـي، وقعـت عينـاي علـى سـمكة شـبوط ضـخمة، كانـت تلـوذ بـين المـاء والطـين، محصـورة فـي ميـاه ضـحلة منفصـلة عـن البحيـرة. نسـيت تحـذير الأميـرة الـذي أطلقتـه ذات يـوم ونحـن نتجـول بالقـارب، بعـد وصـولي للجزيـرة بفتـرة وجيـزة. لـم أسـتطع مقاومـة إغـراء السـمكة، فحملتهـا علـى كتفـي، أتخيـل لحمهـا الأبـيض يتقـدد فـوق النـار، وأتـوهم أنهـا سـتكون هدية تليق بمقام الأميرة.

أحكمـت القـبض علـى خياشـيمها، ورفعتهـا علـى متنـي متجهًـا إلـى القصـر، يحـدوني أمـلٌ بـأن تقـدر جهـودي، وتثنـي علـى فعلـي، وتلـين قلبهـا نحـوي. كنـت أطمـح أن أخـتم علاقتنـا بخـاتم الـزواج، أن أختصر زمن الانتظار، وأجعل الحلم واقعًا.

كلما اقتربت من القصر، غمرتني نشوة غريبة، صرت أتحسس السعادة، أهجس بأن الحلم صار حقيقة. رافقتني جوقة من الطيور الصادحة، زقزقتها وصفيرها يعلو من حولي، فيما الأشجار تعزف ترنيمة غريبة، واكبتها عاصفة ريح صرصرة مفاجئة. لم أفهم سر ذلك التغيير، ولم أشغل بالي به، ظننته من وحي الطبيعة أو تقلبات الطقس.

حين دنوت من القصر، رأيت الأميرة جالسة على أريكة مطلة على الجزيرة، أمام باب القصر. بدت وكأنها تفتقدني، أو ربما شغلها صدح الطيور وحفيف الشجر، أو طيف ذكرى قديمة حرّك مشاعرها. هجست بها مغتاظة، قلقة، تنتظر قدومي على أحرّ من الجمر.

كان الشوق يسوقني إليها، والود يحملني، وما إن وصلت حتى نطق لساني بشوقٍ وغنج: "السلام على سيدتي الجميلة."

التفتت نحوي، تأملتني قليلاً، ثم غيّم الغضب على وجهها، وارتسم السخط على ملامحها. استقبلتني على عكس ما توقعت تمامًا، أطلقت شرارة الغضب من عينيها، وزجرتني صارخة:...

- ما هذا الذي تحمله بيديك يا قذر؟ لقد أفسدت الجزيرة العذراء! ألم أحذّرك من قبل؟ لقد قتلتها، ذبحت الطبيعة النضرة، أفسدت براءة العلاقة بين الكائنات الجميلة... أعد السمكة للبحيرة حالًا!

ثم أردفت، تمنحني فرصة أخيرة حتى صباح الغد لأغادر الجزيرة، وقالت بحزم:...

- حذرتك سابقًا من العبث في الجزيرة، لم تصن حرمتها، لذا لا تستحق العيش بها. عد من حيث أتيت، وإلا ستلاقي مصيرًا أسودًا هنا... هيا، أغرب عن وجهي حالًا!

لم أنتظر أمامها، خرجت مكسور الجناح، رميت السمكة في مياه البحيرة، حيث كانت السمكة قد ماتت. تململت الشمس وهي تزاول لعبة الغروب والشروق بين السحب المغبرة، أضفتْ على الأجواء أجواء حزن وكآبة، حزنت على غضب الأميرة، عادت الوحشة إلى قلبي، بقيت طوال ذلك اليوم والليلة التي تبعتها مكسوف الوجه، لم ترف لعينيَّ جفن.

لم أذهب لدار الضيافة طبعا، بل قضيت تلك الليلة كالوحوش بين أشجار الغابة، قابع تحت شجرة سدرة كبيرة، صرت ألوم نفسي على ما فعلت، حينها كنت قد تذكرت تحذيرها، التمست عذرها وقلقها، حيث الاحترام والتقدير ينسجان من التزام الفرد بخصوصية المكان الذي يقطن فيه..

صرت ألوم نفسي على فعلتي، على خيانتي لقواعد الجزيرة، على نكثي للعهد الذي قطعته أمام الأميرة. لم يكن الأمر مجرد مخالفة، بل كان خذلانًا لها، ولشرائع المكان الذي احتضنني. كان عدم تقديرٍ لفكرها، لعقلها، لشخصها. فالتقدير لا يُقاس بالكلمات، بل بالالتزام، وهو أبجدية التعامل بين البشر.

ثم بدأت أُحادث نفسي...

لِمَ ألوم نفسي؟ ألست من أبناء آدم؟ بلى ورب الكعبة، كلنا خطاؤون. وهل التزم آدم بتحذير ربه حين أكل من الشجرة؟ لا، أخطأ، ونُفي من الجنة، وورثنا نحن تبعات خطيئته. وها أنا أكرر ذات الخطأ، أنفي نفسي من الجزيرة، من الجنة التي وهبتني إياها الأميرة.

لكن كيف أعتذر؟ كيف أجد صيغة تُرضيها؟ الله تقبّل اعتذار آدم، لكن الأميرة ليست الله، إنها بشر، ولا أظنها ستصفح عني.

كان الغضب يسود الأجواء، كأن الطبيعة نفسها غاضبة، كأنني لطخت جمالها بريشة عبثية. لم أستطع أن أفارق الأميرة، بعد أن صار الحلم قريبًا، بعد أن تشبثت بها كما يتشبث النور بالقمر. لذا، قررت أن أعتذر، أن أقدم لها اعتذارًا يليق بمقامها، علّها تصفح، علّ الجزيرة تهدأ، وتعود المياه لمجاريها.

وفي صباح اليوم التالي، جلست على وقع فوضى عارمة اجتاحت الجزيرة. بقيت ساهرًا طوال الليل، حتى طلوع الفجر. ومع صياح الديك، اشتد العصف، وسقطت الأشجار، وتفجرت البراكين، وانقطع دفق الشلالات. كأن يوم القيامة قد حلّ.

رأيت قومًا مدججين بالسلاح، يجوبون طرق الجزيرة، يبحثون عني. كانوا كما وصفتهم الأميرة: عبيدًا، ذوي بشرة مصفرة، وعيون صغيرة، وشفاه منتفخة، وأنوفهم مجرد ثقبين. قاماتهم قصيرة، لكن حركتهم سريعة، منتظمة، يتبعون قائدهم كأنهم جيش من الأشباح.

هربت من الغابة خوفًا من سقوط الأشجار، لكنهم قبضوا عليّ، واقتادوني إلى الأميرة، الجالسة على صخرة اعتادت الجلوس عليها. كانت مكفهرة الوجه، تتذرع إلى الله أن يجلي البلاء، تغرق في رجاءٍ منقطع النظير.

وقفت أمامها، مكسور الخاطر، أرتجف، أرتجي الصفح، لكن غضبها كان أعتى من أن يُروّض. زجرتني بعنف:...

- ألم آمرك بالمغادرة؟ لمَ لمْ تصغ؟ القصاص سيتم حالًا!

قلت برجاء:...

- سيدتي، أليس من الأدب أن أعتذر قبل أن أغادر؟ لم أقصد الإساءة، أردت فقط أن أتقرب إليك بهدية.

لكنها لم تصغ، غضبها كأنها طوفانًا بدأ بها، حيث صرخت:..

- لقد دمرت الجزيرة، انظر ماذا فعلت!

وفي تلك اللحظة، اهتزت الصخرة تحت قدميها، وتحركت نحو البحر. فقدت توازنها، مالت، ثم هوت باتجاه البحيرة، تستنجد بي، صارخة:....

- آه يا سمير.....

رميت نفسي خلفها، حاولت أن أمسك بها، أو بكفاف ثوبها، دون جدوى. صرخت خلفها:....

- يا أميرتي... أ...ح...ب...ك... أحبك!!!!

لكنني لم أكمل العبارة، إذ تساقطت الأقداح والقوارير وأبريق الشاي من على الطاولة، تدوي بانكساراتها في أرجاء الغرفة. حيث اصطدم رأسي بطاولة الشاي، وسقطت الأحلام من رفوفها، مع صينية الاستكانات فلم اسمع سوى جلجلة انكساراتها تطرق مسامعي في غرفتي.

استيقظت على ألمٍ في جبهتي التي تخضبت بالدماء، إثر جرح فوق الحاجب. كنت قد سقطت من السرير حين رميت بذاتي خلفها، لكنني فقدتها.

ياااه... أين كنت؟ كم كانت تلك الأحلام السادرة جميلة. رغم سوء الطالع في نهايتها، إلا أنها جعلتني أعيش واقعًا مختلفًا، واقعًا تمنيت لو دام طويلا.

آه، كم كانت تلك الفاتنة جميلة...

لكنها لم تكن سوى أضغاث أحلام.

ليتها دامت.

حينهـا شـعرت بحـالي الأسـيرة، أشـبه بتلـك الأقـداح المتكسـرة، المبعثـرة بـين الأحـلام واليقظـة، بـين الرجـاء والنـدم، بـين أرضـية الغرفة وسقف الخيال.

فينوكر 2019 **تموز**

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- عطر خلف الستار
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العِقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- فواصل الشوق
12- حين اتقدت الرأفة
13 - الرؤيا

في صباح اليوم التالي جلست على وقع فوضى عارمة عمت أرجاء الجزيرة. على الرغم من أني بقيت ساهدا طوال الليل، حتى طلوع الفجر.. مع فترة صياح الديك أشتد وقع العصف في الجزيرة، أرتفع وتير الصخب، سقطت بعض الأشجار محدثة جلجلة شديدة، كأنه يوم القارعة. اجتاحت الجزيرة عاصفة هوجاء، أقلعت بعض الأشجار، أسقطت من كتل أحجار من قمم الجبال، كأنَّها أصابها زلزالا، حيث تلاطمت الأمواج وتفجرت البراكين في شرقها، كما أنقطع دفق الشلالات ونشفت جداول المياه. حينها شاهدت قوما مدججين بالسلاح، يجوبون طرق الجزيرة كأنهم يبحثون عني. شعرت بخيفة، كأنَّهم يتهيؤون لحرب قادمة، وجدتهم يختلفون عنا شكلا وحجما كما وصفتهم الأميرة، كانوا أشبه بالعبيد، ذوات بشرة مصفرة وعيون صغيرة وشفاه منتفخة، فيما أنوفهم عبارة عن ثقبين ملتصقين في الوجه، فيما أطوال قاماتهم لا تزيد عن متر إلى متر وربع.